صمويل بيكيت

الحب الأول والصحبة

ترجمة . فوزية العشماوي

94

المشروع القومي للترجمة

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

صمويل بيكيت

الحب الأول والصحبة

ترجمة . فوزية العشماوى

المجلس الأعلى للثقافة

١٩٩٩

(النص الأصلى باللغة الإنجليزية طبع عام ١٩٨٠
وقام المؤلف صمويل بيكيت بترجمته بنفسه إلى اللغة الفرنسية)
ونشر فى مطبوعات منوى بباريس تحت اسم
COMPAGNIE (1980)
Editions de Minwit - Paris
France

الحب الأول

هذه الرواية القصيرة تندرج تحت ما يطلق عليه أدب اللا معقول ، وكذلك الأدب السوريالى والرواية الجديدة . وهذه الأطر تجعلنا أكثر حيطة عندما نقرأ هذه الرواية لنتقبل ما تحتويه من بعض المفاهيم الخارجة عن معتقداتنا وتقاليدنا ومفاهيمنا الأخلاقية والدينية .

ربما وجب تحذير القارئ عند نشر ترجمة هذه الرواية بأن المؤلف يلجأ إلى المفارقات اللامعقولة ليؤكد على "لا معقولية" المفاهيم التى نعيش بها فى الحياة دون أن نفهم أسبـابها أو مبرراتها ، لأنها أحيانا لا يكون لها أسباب معقولة .

والرواية تحكى مفارقات حياة إنسان بسيط وربما يكون متخلفًا عقليا أو - على الأقل - معوقاً . لأن والده كان يحميه أو يرعاه قبل وفاته : "طالما أنه لم يكن يؤذى أحداً" وكان الوالد يطلب من بقية أهل البيت" أن يتركوه فى غرفته ولايطردوه من البيت" ولكن بعد وفاة الأب طرد أهل البيت الشاب من بيته ، فهام على وجهه ووجد المأوى فى غابة فوق دكة خشبية ، ولكن جاءت امرأة تزعجه وتشاركه فى الدكة ، تركها لها وذهب ليعيش فى "زريبة" قذرة وأصبح ينام فوق الوحل وروث البقر ولكنه شعر بالحب لأول مرة وأخذ يكتب اسم المرأة التى التقى بها فوق الدكة فى الغابة - على روث البقر فى "الزريبة" . وعاد يبحث عنها فوق الدكة وكانت المرأة فى انتظاره ، وأخذته معها إلى بيتها . وبعد أن سكن معها فى بيتها أخبرته أنها حامل فى شهرها الخامس ، وأنه والد الجنين . ولكن الشاب اكتشف أنها تستقبل زبائن فى بيتها وأنها تعيش من الدعارة ، فعزم على ترك البيت بالرغم من عدم وجود مأوى آخر له .

ويوم أن جاءها المخاض لم يطق صرخات الولادة فهرب من البيت وهى تلد بينما صرخاتها تلاحقه وظلت تلاحقه طول العمر" .

الكاتب لجأ إلى أسلوب السرد بتيار الوعى وبضمير المتكلم ، ولكنه يوجه الخطاب والحديث إلى القارئ وأحياناً كثيرة يخرج من إطار السرد ويدخل فى نقاش مع القارئ فى موضوع لايمت للرواية بصلة.

وتعتبر هذه الرواية من أروع ما كتب صمويل بيكيت قبل حصوله على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩

د . فوزية العشماوى

صمويل بيكيت (١٩٠٦ - ١٩٨٩)

ولد صمويل بيكيت عام ١٩٠٦ فى دبلن بأيرلندا وتوفى عام ١٩٨٩ فى باريس . وهو من أصل إيرلندى ، وإن كان عشق فرنسا واستقر فى باريس منذ عام ١٩٣٧ وحتى وفاته عام ١٩٨٩ .

نبغ صمويل بيكيت فى دراسة اللغات وحصل عام ١٩٢٧ وهو فى العشرين من عمره على درجة الليسانس فى اللغة الفرنسية التى أجادها لدرجة أنه كتب معظم رواياته وقصصه ومسرحياته باللغة الفرنسية بالرغم من أن لغته الأم هى الأيرلندية ، ولغته الأولى هى الإنجليزية . ويعتبر صمويل بيكيت من أشهر وأكبر أدباء القرن العشرين وقد حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩

ويعتبر صمويل بيكيت من الأدباء القلائل الذين يكتبون بلغتين فى آن واحد ، فقد كتب معظم مؤلفاته باللغتين الإنجليزية والفرنسية حيث كان يكتب النسخة الأصلية بالفرنسية ثم يقوم بترجمتها إلى الإنجليزية أو العكس ، أى يكتب الأصل بالإنجليزية ثم يترجمه إلى الفرنسية ، وأحيانا كان يترك الترجمة لبعض المقربين منه .

اشتهر صمويل بيكيت بمسرحياته ولعل أشهر مسرحية له هى «فى انتظار غودو» (١٩٥٣) وبالرغم من أنها أولى مسرحياته إلا أنها حققت نجاحاً منقطع النظير ما تزال حتى الآن من أشهر المسرحيات وأكثرها تقبلاً ومشاهدة من الجمهور فى باريس وغيرها من العواصم الأوروبية . وقد كتبها بيكيت باللغة الفرنسية وترجمت لكثير من اللغات وبالرغم من

أن الشخصيات المسرحية رجال ونساء من لحم ودم ، إلا أنهم مخلوقات غريبة ، يتحركون ببطء وكأنهم يسبحون فى عالم كله غموض وصمت وانتظار وقلق وضغط نفسى ومعنوى ، يتكلمون بحساب وبدقة ولغتهم لغة فلسفية ونظرتهم للحياة سوداوية ، وحزنهم وغموضهم وانتظارهم المستمر بلا سبب مثلما الحال فى مسرحية "فى انتظار غودو" ، حيث ينتظر البطلان شخص ثالث غامض وغريب يطلقون عليه اسم "غودو" ويطول انتظارهم حتى نهاية المسرحية دون أن يأتى "غودو" ، ولاشىء فى المسرحية يبرر سبب هذا الانتظار الطويل أو يحدد شخصية أو معالم ما ينتظرونه . وكلمة "غودو" قد تكون تحريفاً للكلمة الإنجليزية "God" أى الرب أو الإله أو المعبود أى أن ترجمة المسرحية أو عنوانها هو "فى انتظار الرب" ، ربما معنى "غودو" أيضاً هو الشىء الذى لايمكن العثور عليه وربما يكون "ذات كل إنسان" .

وقد ابتدع بيكيت بهذه المسرحية رحلات البحث عن المجهول التى حاول كثير من الأدباء من بعده استخدام نفس المنهاج فى البحث عن شخصية أسطورية أو خيالية رمزية ، وينتهى العمل الأدبى أو الرواية دون العثور على المطلوب ، مثلما فعل أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى رواية "الطريق" وفى قصة "زعبلاوى" .

أما روايات وقصص صمويل بيكيت فهى أيضاً تدور فى الفلك نفسه الرمزى اللا معقول ابتداء من رواية مورفى (١٩٣٨) بالإنجليزية وترجمتها الفرنسية (١٩٤٧) وهى أيضاً تدور حول رحلة البحث عن المفقود ، والمفقود فى هذه الرواية هو صدر الأم الذى يحاول المؤلف من

خلال البطل العثور عليه أو العودة إليه بالرغم من أن العودة إلى ثدى الأم شيء مستحيل بالنسبة لإنسان بلغ مبلغ الشباب والنضج . وفى رواية "موللى" (١٩٥١) باللغة الفرنسية ، تبحث البطلة "موللى" ذات الشخصية المزدوجة عن وجهها الآخر أو قرينتها "موران" وهى تبحث دائماً عن أمها وتدور فى حلقة مفرغة دون أن تعثر فى النهاية على الأم المفقودة .

وفى رواية "الحب الأول" (١٩٧٠) بالفرنسية يبحث البطل عن الصلة بين الموت والحب أو بين المقابر والزواج . واللا معقول عند بيكيت هو تلك الثنائيات اللامعقولة وغير المتوقعة التى يلجأ إليها ليبرهن للقارئ أن العالم من حولنا لا معقول ، ولا توجد أسباب لما يحدث حولنا ؛ لذا أطلق النقاد على عالم بيكيت "اللا سببية" أو عالم ضد السببية "ANTI - CAUSLITÉ"

د . فوزية العشماوى

صمويل بيكيت (١٩٠٦ - ١٩٨٩)

الحب الأول

(١٩٧٠)

يختلط فى ذهنى دائماً تاريخ زواجى مع تاريخ وفاة أبى دون أن أدرك إذا كان ذلك صحيحاً أم غير صحيح . وربما يكون هناك صلة أخرى وعلى مستوى آخر بين هذين الحدثين فمن الصعب علىَّ أن أقول ما أعتقد أننى أعرفه .

ذهبت لزيارة قبر أبى مؤخرا ، أعرف ذلك ، لأننى كتبت تاريخ وفاته ، تاريخ وفاته فقط لأن تاريخ ميلاده لم يكن يهمنى فى شىء فى ذلك اليوم . ولقد ذهبت للزيارة فى الصباح وعدت آخر النهار وتناولت غذائى بين المقابر . ولكن بعد مرور عدة أيام على تلك الزيارة اضطررت للعودة أمام القبر ، لأننى كنت أرغب فى معرفة كم كان عمره حين مات لذا عدت لأكتب تاريخ ميلاده . ولقد كتبت التاريخين ، حدود الحياة ، فى ورقة صغيرة أحتفظ بها أمامى .

وهكذا أصبح بمقدورى أن أؤكد أننى كنت فى حوالى الخامسة والعشرين عند زواجى . أما تاريخ ميلادى ، أقول تاريخ ميلادى أنا فإننى لم أنساه أبداً ولم أضطر أبداً أن أكتبه لأتذكره لأنه تاريخ محفور فى ذاكرتى تماماً مثل التاريخ المحفور على المسكوكات وقطع النقد : أرقام ، ولكنها أرقام لن تستطيع الحياة أن تمحوها . أتذكر ليس فقط عام ميلادى ولكن أيضاً يوم ميلادى ، بمجهود بسيط أتذكر تاريخ اليوم ،

وأحتفل به أحيانا كثيرة بطريقتى الخاصة ولا أقول فى كل مرة يعود ، كَلَّا ، لأنه يعود كثيراً جداً ، ولكن أحيانا فقط أحتفل به .

أنا شخصياً ليس عندى ما أقوله ضد المقابر فأنا أتنزه بينها على سجيتى أكثر من أى مكان آخر على ما أظن حين أضطر للخروج . ولا تزعجنى إطلاقاً رائحة الجثث التى أشمها وتفوح من تحت العشب والتراب . رائحة فيها طعم السكر ، سكر زيادة ، رائحة فيها إلحاح ولكنها أفضل بكثير من رائحة الأحياء ، رائحة الأبطين والقدمين والمؤخرة وقلفة الذكر اللامعة والبويضات التائهة .

وحين تمتزج رفات جثة أبى وتنصهر فى هذه الرائحة بنسبة ما ، مهما كانت متواضعة ، فإن الدموع تكاد تملأ عينى ومهما حاول الأحياء وبالرغم من الاستحمام والتعطر فإن رائحتهم عفنة .

نعم حين نضطر للخروج للتريض اتركوا لى المقابر واذهبوا أنتم للتريض فى الحدائق العامة أو فى الريف . فأنا أستطعم أكثر السندوتش أو الموزة حين آكلها وأنا جالس على أحد القبور وإذا أخذتنى الرغبة للتبول ، وكثيراً ما تأخذنى ، فأمامى حرية الاختيار . أتجول بين المقابر وذراعاى خلف ظهرى ، أنظر إلى الأحجار القائمة ، الطويلة والنائمة والمائلة ، وألمس الكتابة المنقوشة على النُصب وأدور حولها مثل النحلة . لم تصدمنى أبداً الكتابات المنقوشة وهناك ثلاثة وأربعة دائماً فيها شىء من الغرابة والسخرية المضحكة حتى أننى أضطر أحيانا أن أستند على الشاهد أو الصليب أو تمثال الملاك حتى لا أقع من شدة الضحك .

أما النقوشات التى سأكتبها على نُصب قبرى فقد ألفتها منذ زمن بعيد وأنا سعيد بها وراضٍ عنها ، أما كتاباتى الأخرى فإننى أشعر بالاشمئزاز منها بمجرد الانتهاء من كتابتها وحتى قبل أن يجف الحبر الذى كتبتها به ، أما نُصبى فإن نقوشاته تعجبنى دائماً . إنها تعتبر تشريفاً لقواعد اللغة . ولكن للأسف قد لا ترتفع أبداً فوق الجمجمة التى صاغتها إلا إذا تكفلت الدولة بذلك . ولكن إخراجى من قبرى لن يكون بالأمر السهل فيجب العثور علىّ أولا ، وأشد ما أخشاه هو أن تجد الدولة نفس الصعوبة فى العثور علىّ حياً أو ميتاً ؛ لذا فإننى أسارع بتثبيت هذه النقوشات على نُصبى قبل أن يفوت الأوان .

هنا يرقد من أفلت منه مراراً

والذى لم يفلت منه إلى الآن

توجد كلمة زائدة فى المقطع الثانى من بيت الشعر هذا ، ولكن ليس لذلك أية أهمية فى رأيى . سوف أسامح بسبب أشياء أكبر من ذلك بكثير عندما أرحل عن هذا العالم .

أثناء التجول فيما بين القبور نشاهد أحيانا جنازة حقيقية ودفن حقيقى فى وجود الأحياء المحزونين ، وأحيانا توجد أرملة تريد أن ترمى نفسها فى حفرة القبر . وفى أغلب الأحيان تتكرر نفس الحكاية الحلوة مع التراب ، بالرغم من أننى لاحظت أن هذه الحفر تكون دائماً قليلة التراب لأن التربة تكون دائماً ندية ولزجة وكذلك جثة الميت لايبدو عليها أنها قابلة للتفتت إلا إذا كان الميت قد مات محترقاً وتفحمت جثته .

إنها لجميلة حقاً تلك الكوميديا مع التراب .

أما المقبرة التى دفن فيها أبى فإننى لم أكن متعلقاً بها بالذات ، فقد كانت بعيدة جداً فى قلب الريف وتقع على حافة ربوة صغيرة جداً . وكانت المقابر مكتظة ولاينقصها سوى بعض الأرامل من النساء لتصبح كاملة العدد . كنت أفضل أكثر مقابر "أوهولدرف" ، خاصة ناحية "لين" فى أراضٍ بروسيا ، حيث تمتد المقابر على مساحة أربعمائة هكتار مكتظة بالجثث المدفونة ، بالرغم من أننى لم أكن أعرف أحداً منهم فيما عدا مروِّض الوحوش المشهور "هاجنباك" ، حيث يوجد أسد محفور على نُصبه على ما أظن . ويبدو أن الموت كان له وجه أسد بالنسبة له وكانت الحافلات فى رواحها وغدوها تمتلأ بالأرامل من الرجال والنساء وكذلك بالأيتام الذين يجدون السلوى وينسون أحزانهم وسط أشجار الغابات وكذلك المغارات الصغيرة وجداول المياه التى تسبح فيها بعض البجعات . كان ذلك فى شهر ديسمبر ولم أشعر فى حياتى بالبرد مثلما شعرت فى ذلك الحين حتى شوربة السمك لم أستطع أن أبتلعها وخشيت أن أموت فتوقفت لأتقيأ ، وكنت أحسدهم جميعاً .

لأنتقل الآن إلى حديث أقل حزناً : لقد اضطررت إلى مغادرة البيت بعد وفاة أبى . كان هو الذى يريدنى أن أبقى فى البيت فقد كان رجلاً غريب الأطوار . قال لهم يوماً " اتركوه طالما أنه لا يضايق أحداً" ولم يكن يعرف أننى أسمعه . ربما كرر هذه الفكرة عدة مرات ولكنى لم أكن متواجداً فى تلك المرات الأخرى . لم يوافقوا أبداً أن يجعلونى أرى وصيته ولكنهم قالوا لى فقط أنه ترك لى مالاً كثيراً . وظننت أيامها ، وما أزال أعتقد ذلك حتى الآن ، أنه طلب منهم فى وصيته ، أن يتركونى

فى الغرفة التى كنت أقيم فيها وهو ما يزال على قيد الحياة وأن يحضروا لى الطعام مثلما كانوا يفعلون فى الماضى . وأعتقد أن ذلك كان شرطاً أساسياً لتنفيذ بقية بنود الوصية . أعتقد أنه كان يحب وجودى فى البيت ويشعر به وإلا لما كان يعترض على طردى من البيت . وربما كان يشعر فقط بالشفقة نحوى . ولكنى لا أعتقد ذلك ، وكان يجب عليه أن يوصى لى بالبيت كله وبذلك أكون مرتاحاً والآخرين أيضاً لأننى كنت سأقول لهم حتما :

" ابقوا معى فإن البيت بيتكم !"

كان البيت بيتا ضخماً .

نعم ، لقد خدعوا أبى المسكين إذ كانت نيته حقيقة هى الاستمرار فى حمايتى حتى بعد دفنه فى القبر .

أما بالنسبة للمال فالحق يقال أنهم أعطوه لى على الفور ، صباح يوم الدفن ، ربما لم يكن فى وسعهم إلا أن يفعلوا ذلك . لقد قلت لهم حينئذ احتفظوا بهذا المال لكم ودعونى أستمر فى المعيشة فى تلك الغرفة مثلما كان الحال فى حياة أبى ، وأضفت" لتصعد روحه إلى السماء" وكلى أمل أن أرضيهم وأدخل السرور على قلوبهم ولكنهم لم يوافقوا وعرضت عليهم أن أكون رهن إشارتهم وأتكفل بالعناية بالبيت وأقوم ببعض الأعمال الضرورية لصيانة البيت لبضعة ساعات فى اليوم ، تلك الأعمال التى لابد منها لكل بيت حتى لا يتحول إلى تراب . عرضت عليهم أن أقوم بتلك الأشغال البسيطة طالما أنَّ ذلك كان ممكناً ، عرضت عليهم أن أعتنى على الأخص بالمشاتل الساخنة حيث كان بإمكانى أن أمضى

بداخلها ثلاث أو أربع ساعات يومياً وسط الحرارة لأرعى الطماطم وزهور القرنفل والزهور الزنبقية وبراعم الزهور .

ولم يكن فى ذلك البيت أحد يفهم الطماطم إلا أنا وأبى .

ولكنهم لم يوافقوا على اقتراحى . وذات يوم بعد خروجى من دورة المياة وجدت باب غرفتى مغلقاً بالمفتاح وجميع محتويات الغرفة الخاصة بى ملقاة فى كومة أمام باب الغرفة . وهذا يدل على أننى كنت أعانى من الإمساك الشديد فى ذلك الوقت .

كان القلق هو السبب فى ذلك الإمساك الشديد على ما أظن ولكن هل كنت حقيقة مصاباً بالإمساك ؟ لا أعتقد ذلك . قليل من الهدوء ، ومع ذلك فمن الأرجح أننى كنت بالفعل أعانى من الإمساك ، وإلا ما هو تفسير تلك الساعات الطويلة الرهيبة التى كنت أقضيها فى المرحاض ودورات المياه ؟ لم أكن أقرأ خلالها أبداً لا فى هذه الأماكن أو حتى خارجها ، لم أكن أحلم أو أفكر بل كنت أحملق فى النتيجة المعلقة فى مسمار فى الحائط أمامى ، وكانت عليها صورة لشاب ملتحٍ تحيط به الخراف من كل جانب ، وهو المسيح على الأرجح . الإمساك الشديد يجعلنى أمسك بأردافى وأبعدها عن بعضها وأحزق بقوة: "آه ... هيه ... واحد ... اثنين ... هيه ! "،آتى بحركات مثل الذى يجدف وسط الأمواج ، وبعد ذلك كنت فى حاجة شديدة للعودة إلى غرفتى للاستلقاء فوق سريرى .

كان ذلك إمساكاً بكل تأكيد ، أليس كذلك ؟ أو أننى أخلط بين الإمساك والإسهال ؟ كل شىء مختلط فى رأسى : المقابر والزفاف والأنواع المختلفة من البراز .

كانت حاجياتى قليلة فوضعوها فى حزمة على الأرض أمام باب الغرفة وما زلت أرى أمامى تلك الحزمة الصغيرة وسط ظلام الممر أمام غرفتى . واضطررت أن أبدل ملابسى وأنا واقف فى هذا الممر الضيق ذى الجدران الثلاث ، أعنى بذلك أننى خلعت جلباب نومى ورداء البيت وارتديت ملابس الخروج وأعني بذلك الجورب والحذاء والسروال والقميص والسترة والمعطف والقبعة ، وأرجو ألا أكون قد نسيت شيئاً .

حاولت أن أفتح أى باب آخر قبل مغادرة البيت فأدرت مقبض عدة أبواب ولكن لم ينقاد لى أى مقبض ولم أفتح أى باب وأظن لو أننى وجدت أية غرفة مفتوحة لاحتميت فيها ولرفضت أن أخرج منها ولما استطاعوا إخراجى منها إلا بالغاز .

كنت أشعر أن البيت مكتظ بالناس - كالعادة - ولكنى لم أر أحداً . وأعتقد أنهم جميعاً اختبأوا فى غرفهم ، وآذانهم صاغية يترقبون ما سيحدث . ثم هرعوا جميعاً وراء النوافذ ، محتمين وراء الستائر ، بمجرد أن سمعوا صوت باب البيت الخارجي وهو يغلق خلفى ، كان الأجدر بى أن أترك الباب مفتوحاً .

ثم انفتحت الأبواب وخرج الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً . كل خرج من غرفته وتعالت الأصوات والتنهدات والضحكات والأيدى والمفاتيح فى الأيدى ، وتنفسوا الصعداء ! ثم استعادوا الأوامر ، فى حالة كذا يصير الأمر هكذا وفى حالة ما إذا كان الأمر كذلك إذن فهكذا ، جو فرح وعيد ، كل فهم ما عليه أن يفعل . والآن هيا نتناول الطعام ، فالغرفة ستنتظر

حتى نفرغ من طعامنا . كل هذا من نسيج خيالى بالطبع ، لأننى لم أكن هناك معهم .

ربما جرى الأمر بطريقة مختلفة ولكن ما أهمية ذلك ، ما أهمية الطريقة التى تجرى بها الأمور طالما أنها جرت ؟

وما بال كل هذه الشفاه التى قبلتنى وكل هذه القلوب التى أحبتنى (إن الناس تحب بقلوبها أليس كذلك أم أننى أخلط القلوب بأشياء أخرى ؟) وكل هذه الأيدى التى لعبت مع يدى وكل هذه العقول التى كادت تتملكنى !

إن الناس بالفعل غريبو الأطوار ! مسكين أبى ! كان سيتضايق بشدة لو أنه رآنى فى ذلك اليوم ، لو أنه استطاع رؤيتى لتضايق من أجلى ، هذا ما قصدت قوله . وبالرغم من أن جثته لم تكن قد تحللت بعد إلا أنه وفى ظل حكمة فصل الروح عن الجسد ، لم يعد يرى أبعد مما يرى ابنه .

ولكن من أجل تغيير الموضوع والخوض فى حديث أكثر مرحاً فإن اسم المرأة التى ارتبطت بها بعد ذلك بقليل ، اسمها الصغير كان لولو ، هذا ما أكدته لى - على الأقل - ولا أجد مبرراً يجعلها تكذب على بهذا الخصوص . وبما أنها لم تكن فرنسية فقد كانت تنطق اسمها لولو وبما أننى أيضاً لم أكن فرنسيا فإننى كنت انطق اسمها كما تنطقه هى أى لولو . نحن الاثنين إذن كنا ننطق اسمها لولو .

وقد أخبرتنى أيضاً بلقب أسرتها ولكنى نسيته ، كان من الأجدر بى أن أدوّنه على ورقة صغيرة لأنى لا أحب أن أنسى أسماء العلم .

تعرفت عليها على أحد المقاعد على ضفاف الجدول ، أحد الجداول لأن مدينتنا بها جدولان ولكنى لم أعرف أبداً أن أفرق بينهما . كان المقعد عبارة عن دكة ذات موقع ممتاز تستند على كومة من الطين والنفايات المجففة التى كانت تلتصق بمؤخرتى وكذلك بظهرى أو الأجزاء السفلى من ظهرى وكانت هناك شجرتين ضخمتين تستند الدكة عليهما بالرغم من أنهما كانتا قد فارقتا الحياة . وأعتقد أن فكرة وضع الدكّة فى هذا المكان بالذات قد خطرت لشخص ما عندما وجد هاتين الشجرتين وارفتى الظلال بفروعهما وأوراقهما الكثيفة . وأمام الدكة وعلى بعد عدة أمتار تجرى القناة ، إذا كانت القنوات تجرى ، وأنا شخصياً لا أعرف . من هذه الجهة إذن لم أكن معرَّضا لأن أفاجأ بظهور أحد فجأة . ومع ذلك لقد فاجأتنى .

كنت مستلقيا على الدكة والجو جميل وأنا أنظر إلى فتحة السماء من خلال الفروع غير المورقة للشجرتين والممتدة فوق رأسى بينما السحب القليلة غير المستمرة تروح وتأتى فى هذا الركن من السماء .

قالت " أفسح لى مكاناً" .

أول ما خطر لى أن أفعله هو الانصراف ولكن التعب وعدم معرفة أى مكان يمكن أن أذهب إليه منعانى من مطاوعة هذا الخاطر ، فما كان إلا أننى لمت ساقى تحت جسدى ، فجلست هى . ولم يحدث بيننا أى شىء فى ذلك المساء ، لأنها انصرفت بعد ذلك بقليل دون أن توجه لى الحديث . ولكنها اكتفت بالغناء أو بالدندنة لنفسها . وبدون كلمات لحسن الحظ ، دندنت بعض الأغنيات القديمة المعروفة فى هذا البلد . كانت

دندنتها متقطعة بأسلوب عجيب إذ أنها كانت تقطع الأغنية فجأة وتبدأ فى أغنية أخرى ثم تعود فجأة إلى الأغنية الأولى حيث تكمل المقطع الذى قطعته بسبب الأغنية الثانية التى فضلتها على الأولى .

وشعرت بتلك النفس المليئة بالملل والتى لا تكمل أى شىء ولكنها ربما تكون أقل النفوس إزعاجاً للآخرين . حتى الدكة ملّتها سريعاً ، أما أنا فقد اكتفت بإلقاء نظرة سريعة إلىّ ولكنها فى الحقيقة كانت امرأة عنيدة ومتشبثة برأيها لأنها عادت فى اليوم التالى واليوم الذى يليه وجرت الأمور تقريباً مثلماً حدث أول مرة ، ربما تبادلنا بضع كلمات لا أكثر .

وفى اليوم التالى هطل المطر واعتقدت أن ذلك سيجعلنى أنعم بالهدوء ولكنى كنت مخطئا فى تقديرى . وسألتها إذا كان فى نيتها أن تأتى لتزعجنى كل مساء .

فقالت : أنا أزعجك ؟

وبالطبع كانت تنظر ناحيتى ولكنها لم تر شيئا يذكر سوى جفنين وربما جزء من أنفى ومن جبينى بسبب الظلام المحيط بالمكان .

وأضافت :

– كنت أظن أننا ننعم بالراحة معاً .

فقلت لها :

– إنك تزعجيننى ، لأننى لا أستطيع أن أمدد ساقى وأنت هنا .

كنت أتكلم من وراء ياقة معطفى ومع ذلك سمعتنى فقالت :

– أ إلى هذا الحد تحب الاستلقاء ؟

غلطة وإساءة للنفس توجيه الحديث للآخرين . سرعان ما أضافت :

– ما عليك ، ضع قدميك فوق حجرى .

ولم أتردد . وشعرت بفخديها المستديرين تحت قدمى المسكينتين وأخذت هى تمسح بيدها عرقوب قدمى ، وخطر على بالى أن أضربها بكعب رجلى فى فرجها .

أحدثها عن الاستلقاء فلا ترى سوى جسدى الممدد ! إن ما كان يشغلنى أنا ، كملك بلا رعايا ، هو الاستلقاء العقلى . وما كان استلقائى الجسدى إلا انعكاساً من تلك الانعكاسات التافهة والبعيدة التى يأخذها الغلاف الخارجى لفكرة الأنا ولتلك السفاسف المسمومة للفكرة التى يطلقون عليها ال "لا أنا" وحتى للعالم كله من شدة الكسل .

ولكن فى الخامسة والعشرين ينتصب الذكر بسهولة ، حتى الرجل المتحضر أيضاً من وقت لآخر لايستطيع أن يمنع جسده من ذلك ، وهذا نصيب كل واحد منا حتى إن لم يكن بمقدورى أن أقطعه أو أمنعه من أن ينتصب إذا كان ذلك بالفعل انتصاباً .

وقد لاحظت هى ذلك بطبيعة الحال فالنساء يلمحن عضو الذكورة من على بعد عشرة كيلو مترات ومع ذلك يتساءلن : كيف استطاع هذا الذكر أن يلمحنى عن بعد ؟

لا يتمالك الشخص نفسه فى مثل هذه الظروف أو بالأحرى لا يعثر على نفسه وصعب جداً على النفس ألا تجد نفسها ، والأكثر صعوبة أن تكون وتوجد بالرغم من كل ما يقال . فعندما تجد النفس نفسها تعرف ما عليها أن تفعله أما عندما لا تجد نفسها فإنها تصبح أى شخص ولا يكون هناك مجال للتلاشى .

إن ما يسمونه الحب هو المنفى ، من وقت لآخر ، وصول كارت معايدة من البلد ، ذلك كان شعورى فى هذا المساء .

وعندما فرغت هى واستطعت أنا أن أروِّض النفس لتستعيد نفسها بعد برهة قصيرة من اللاوعى ، وجدت نفسى وحيداً .

إننى أتساءل إذا لم يكن كل ذلك من اختراعى ، إذا لم تكن الأمور قد جرت بطريقة أخرى وطبقاً لرسم آخر تناسيته . وبالرغم من ذلك فإن صورتها هى ظلت ملتصقة بالدكة ، دكة المساء وليس دكة الليل ، بحيث إننى حين أتكلم عن الدكة كما تبدو لى فى المساء إنما أتكلم عنها هى . ولكن هذا لايدل على شىء ، ولكنى لا أبحث عن دليل .

أما عن دكة النهار فلا داعى للحديث عنها ، لأننى لم أكن أجلس على الدكة نهاراً بل كنت أغادرها مبكراً ولا أعود إليها إلا بعد العصر .

نعم ، كنت أذهب للبحث عن الطعام وعن المأوى أثناء النهار إذا سألتنى ، وبالطبع لديك الرغبة لطرح هذا السؤال ، عما فعلته بالمال الذى تركه لى أبى ، سأقول لك لم أفعل به شيئاً لقد احتفظت به فى جيبى ، لأننى كنت أعرف أننى لن أظل شابا إلى الأبد ، وأن الصيف لن يدوم إلى ما لا نهاية ، ولا حتى الخريف ، نفسى البورجوازية قالت لى ذلك .

أخيراً قلت لها إننى ضقت ذرعاً بهذا المال . إنها تزعجنى بشدة حتى أثناء غيابها . إنها لا تزال تزعجنى باستمرار على كل حال ولكن مثلها فى ذلك مثل كل شىء حولى . ثم فى النهاية إن الإزعاج لا يزعجنى حالياً . ثم ماذا يعنى الإزعاج ؟ من الضرورى أن أنزعج ،

لقد تغير النظام الآن إننى أمسك فى يدى بعصا لاعب القمار الذى يعرف مقدماً أن مكسبه مضاعف ، الرقم الفائز هو تسعة أو عشرة . ثم إن كل ذلك على وشك الانتهاء :

الإزعاج والتعديلات لن نتحدث عنها بعد ذلك ، لا عنها ولا عن أى شئ آخر عما قريب ، لا عن الغائط ولا عن السماء .

قالت لى :

- إذن أنت لا تريدنى أن أحضر بعد ذلك .

شيء عجيب ! لما يردد الناس ما سبق أن قلناه لهم لتونا ، كأنهم يخشون المقصلة إذا صدقوا آذانهم قلت لها أن تأتى من وقت لآخر .

كنت لا أفهم النساء جيداً فى ذلك الوقت ، وما زلت لا أفهمهن حتى الآن . على العموم الرجال وحتى الحيوانات . أيضاً الشيء الوحيد الذى أفهمه جيداً هو آلامى . إننى أفكر فى جميع آلامى كل يوم ، تفكيرى سريع وآلامى تمر سريعاً فى ذهنى بالرغم من أنها لا تأتى كلها من التفكير .

نعم ، كنت أشتهر فى ساعات كثيرة ، خاصة وقت العصارى ، بإدراك غير متميز ، نوع من تلفيق الأحاسيس حسب نظرية الفيلسوف الألمانى راينهولد . أى توازن هذا !

ثم إننى كنت لا أعرف آلامى جيداً ربما لأننى لست آلاما فقط . هذا هو الخداع الماكر ، إذن فلأهرب منه حتى الاندهاش ، أو حتى الإعجاب

بكوكب آخر . وهذا نادر ولكنه يكفينى . الحياة ليست غبية ؛ لذا فإن الإنسان لا يمكن أن يكون مجرد آلام وإلا فما معنى الأشياء . أن يصبح الجميع منتحبين ، شاكين ليس إلا ، سيتحول الأمر إذن إلى منافسة مستمرة وغير شريفة أيضاً .

ولكن سيأتى يوم وأبوح لك فيه بآلامى الغريبة ، رغم ذلك و إذا لم أنس وإن استطعت أن أغفل ذلك وبكل وضوح وتمييز فيما بينهما لمزيد من الإيضاح . سأحدثك عن آلام الفكر والإدراك ، وآلام القلب ، والآلام العاطفية ، وآلام النفس والروح (حلوة جداً آلام النفس هذه) ، ثم آلام الجسد ، الآلام الخفية ، الداخلية المختفية فى البداية ، ثم الآلام المكشوفة ابتداء من آلام شعر الرأس ونزولاً بالتدريج وبدون استعجال حتى آلام القدمين ، مركز الكالو والأورام المستديرة والتسلخات والتشنجات الجلدية والأظافر المغروسة فى الجلد ، وانتفاخ واحمرار أصابع القدم وآلام القدم المفرطحة أو ذات البروز إلى آخر هذه الغرائب .

كذلك سأقول لمن يريد أن يسمعنى ويكون لديه الذوق واللطف لتحمل سماعى وسأنتهز هذه الفرصة وأقوم بتطبيق نظرية أحد الكتاب الذى نسيت اسمه فانتهج أسلوبه وأقول لمن يستطيع أن يسمعنى عن تلك اللحظات التى لايكون فيها المرء مسطولاً ولا مخموراً ولا نشوان من تأثير مخدر ، ومع ذلك لايشعر بأى شىء .

كانت بالطبع تريد أن تعرف ماذا أعنى بقولى لها أن تأتى من وقت لآخر . هذا ما جنيته لأنى فتحت فمى . هل معنى ذلك كل ثمانية أيام ؟ كل عشرة أيام ؟ أم كل خمسة عشر يوماً ؟ فقلت لها أن تأتى أقل

ما يمكن ، أقل بكثير مما يمكن ، ألا تأتى بتاتاً إذا كان ذلك ممكناً أما إذا لم يكن ذلك ممكنا فإنها تأتى أقل ما يمكن .

ثم إننى هجرت الدكة فى اليوم التالى ، ليس بسببها ولكن بسبب الدكة نفسها لأن موقعها لم يعد يفى باحتياجاتى المتواضعة إلى حد ما ، وذلك لأن البرد القارس بدأ يزحف ثم كانت هناك أسباب أخرى ولا أريد أن أضيعٍ وقتي فيِ سردها أمام البلهاء من أمثالكم .

احتميت فى «زريبة» أبقار مهجورة اكتشفتها أثناء تجوالى ، وهى تقع فى زاوية إحدى الحقول التى تكثر فيها النباتات الشوكية وتبرز أكثر من الأعشاب الخضراء بل إن فى بعض أجزائه يغطى الوحل الأعشاب كلها ربما لأن جوف الأرض له خصائص مميزة .

وفى هذه «الزريبة» المغطاة بروث البقر الجاف والجلة التى تتفتت بمجرد أن ألمسها بأصبعى وكأنها تطلق زفرة ، فى هذا المكان ولأول مرة فى حياتى وربما لآخر مرة أيضاً - إذا امتلكت بعض المورفين - شعرت بصراع داخلى وبدأت أصارع شعوراً بدأ يتغلغل فى فكرى المتجمد ، شعورا له اسم فظيع هو الحب .

إن الجمال الساحر الذى تتميز به بلدتنا لا يرجع فقط إلى قلة عدد سكانها ، بالرغم من استحالة العثور على واق لمنع الحمل ، ولكن يرجع إلى أن كل شيء فيها مهمل فيما عدا النفايات وبقايا البراز القديم . فالجميع ينحنون عليها ويتلقفونها بشغف ويغلقونها ويسيرون بها فى موكب شبه مقدس . وفى كل مكان حولك حيث تجد كميات من البراز ساهم الطقس والأحوال الجوية فى منحها صلابة وأشكالا جميلة فاعلم

أن أهل البلد جلسوا القرفصاء هنا وزفروا زفرات انتفخت وجوههم من آثارها . هنا جنة الذين لا مأوى لهم . وهنا يكمن سر سعادتى فكل شيء يدعو لجلوس القرفصاء . لا أجد صلة بين كل هذه الملاحظات ، ولكن بكل تأكيد هناك صلة أو حتى صلات ، ولكن ما هى ؟ نعم ، كنت أحبها ، هذا هو الاسم الذى كنت أطلقه والذى ما زلت أطلقه للأسف على ما كنت أفعله فى ذلك الوقت .

لم يكن عندى معلومات عن الأمهر لأنى لم أحب قبل ذلك ، ولكنى كنت قد سمعت كلاماً عن هذا الشيء بالطبع فى البيت وفى المدرسة وفى الحانات وبيوت الدعارة والكنيسة . وكنت قد قرأت روايات من الشعر ومن النثر بإشراف الوصيى على ، روايات بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية تناولت جميعها الحب كمادة أساسية .

كان بوسعى إذن أن أعرف ما كنت أفعله وأعطيه أسما ، خاصة عندما كنت أجد نفسى فجأة أكتب اسم لولو على روث البقر أو عندما أكون مستلقياً فوق الوحل . وأنزع النباتات الشوكية دون أن أكسر جذعها . كانت تلك النباتات الشوكية عملاقة ، أحيانا يبلغ طولها متراً فأقوم بنزعها بعنف ، وكان هذا يشفى غليلى بالرغم من أننى بطبيعتى لا أحب نزع الأعشاب الضارة بل على العكس يحلو لى أن أضيف عليها كثير من الأسمدة ، إذا كان عندى سماد . أما الأزهار فتلك حكاية مختلفة .

إن الحب يجعلك شريراً ، هذا واقع فعلى . ولكن أى نوع من الحب كان ذلك الحب ؟ هل كان غراما ملتهبا ؟ لا أظن لأن الشبق المفرط عند

الرجل نوع من الحب الملتهب ، أليس كذلك ؟ أم ترانى أخلط بينه وبين أحد الأنواع الأخرى من الحب ؟ هناك أنواع عديدة من الحب ، أليس كذلك ؟ كلها أجمل من بعضها ، أليس كذلك ؟ الحب الأفلاطونى مثلا ، هذا النوع من الحب خطر على بالى فى هذه اللحظة ، إنه حب نزيه ، لا غرض من ورائه .

ربما كنت أحبها حبا أفلاطونياً ؟ أجد صعوبة فى تصديق هذا الخاطر . فهل يا ترى كنت سأكتب اسمها على روث البقر إذا كنت أحبها حباً صافياً أفلاطونياً ؟ وأخطه بأصبعى فوق البراز ثم أمص أصبعى بعد ذلك غير معقول ، غير معقول أن يكون ذلك حبا أفلاطونيا .

كنت أفكر فى لولو وإن كنت لا أقول كل شىء فأعتقد أنى أقول الكثير ، ثم إننى ضقت ذرعاً بهذا الاسم لولو وسوف أطلق عليها أسما آخرا يتكون من لفظ واحد مثل "آن" مثلا ولكن حتى هذا الاسم لا يتكون من مقطع لفظى وحيد ولكن ما علينا .

إذن كنت أفكر فى "آن" أنا الذى تعلمت وتعودت على ألا أفكر فى أى شىء غير آلامى فقط ، ثم سرعان ما كنت أفكر فى ما يجب على أن أتخذه من تدابير حتى لا أموت من الجوع أو من البرد أو من الخجل ولكنى لم أفكر أبداً فى الناس بوصفهم مخلوقات (ثم إننى أتساءل ما معنى ذلك) .

ومهما قلت أو مهما سأقول فى هذا الموضوع فأنا تكلمت وسأتكلم دائماً عن أشياء لا وجود لها أو ربما تواجدت دائماً ولكن ليس بالمعنى الذى أعطيه أنا للأشياء . فمثلا الكاب العسكرى موجود والأمل ضئيل

فى أن يتلاشى يوماً من فوق رؤوس العسكريين ولكننى أنالم أضع يوماً كابا فوق رأسى. لقد أرسلت خطابا إلى جهة ما ولكنهم ما أعطونى ..... قبعة أبداً . إنهم لم يعطونى قبعة أبدا ؛ لقد احتفظت دائماً بقبعتى ، القبعة التى أعطاها لى أبى ولم يكن عندى أبداً قبعة غيرها وظلت تتبعنى حتى الموت .

كنت أفكر إذن فى "أن" ، أفكر فيها كثيرا ، كثيرا ، لمدة عشرين دقيقة ، خمس وعشرين دقيقة وأحيانا لمدة نصف ساعة يوميا . إننى أتوصل إلى هذه الأرقام بإضافة أرقام أخرى أصغر منها . ذلك كان أسلوبى فى حبها ، فهل معنى ذلك أننى كنت أحبها حباً فكرياً وعقلانياً انتزعنى من مواقف كثيرة فيها غباء ؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك . لأننى إذا كنت أحببتها مثل هذا الحب فهل كنت سأجد متعة فى كتابة كلمة "آن" فوق كميات لا حصر لها من روث البقر ؟ وهل كنت سأجد متعة فى نزع النباتات الشوكية بكلتا يدى ؟ وهل كنت سأحس بفخذيها ترتجفان تحت صلعتى مثل وسادتين تحت قبضتى .

وحتى أضع حدا لهذه الحالة التى كنت عليها ، ذهبت ذات مساء إلى المكان الذى توجد فيه الدكة فى نفس الساعة التى كانت تأتى فيها لتلحق بى فى هذا المكان ولكنها لم تأت وانتظرتها بلا طائل . كنا فى شهر ديسمبر ، أو ربما فى شهر يناير والريح شديدة ، ممتازة مثل كل شىء فى هذا الفصل . ولكن بعد عودتى إلى (الزريبة) أقنعت نفسى بمبررات جعلتنى أقضى ليلة ممتازة وارتكزت هذه المبررات على أن الموعد الرسمى يتغير فى تسجيله مع تغيير الهواء والسماء وحتى القلب أيضاً

وذلك حسب عدد أيام السنة . لذا فقد ذهبت فى اليوم التالى إلى مكان الدكة مبكراً عن البارحة ، قبل انقضاء الليل الحقيقى ورغم ذلك يبدو أننى تأخرت ، لأنها كانت جالسة على الدكة تحت فروع الشجرة المغطاة بالجليد وأمام الماء المتجمد من البرد . لقد سبق وقلت لك أنها امرأة عنيدة جداً ومتشبثة جداً برأيها . كل ما حول الشجرة من نفايات تحوّل إلى جليد أبيض ولم أكن أحس بأى شىء حولى من شدة البرد . ما مصلحتها فى ملاحقتى بهذا الأسلوب ؟ سألتها هذا السؤال وأنا أمشى أمامها ذهاباً وإياباً فوق الجليد دون أن أجلس وكنت أدق الأرض بقدمى بينما الجليد يتكون أمامى ويجعل الطريق يبدو منتفخاً .

وأجابتنى أنها لا تدرى .

ألححت عليها لتقول لى ماذا كانت تجد فىَّ يستحق أن تراه ؟ وإذا كانت تستطيع الإجابة ولكنها أجابت أنها لا تستطيع .

كانت ترتدى ملابس ثقيلة جداً وحتى يديها تغطيها بقطعة من الفرو أسطوانية الشكل وأتذكر أننى بكيت عندما نظرت إلى هذا الفرو بالرغم من أننى لا أتذكر لونه شعرت بضيق لحظتها ، إن دموعى تسيل بسهولة دون أن أستفيد أبداً من مثل هذه المواقف المؤثرة التى تسيل فيها دموعى وأعتقد أننى لو حاولت حالياً أن أبكى فإننى لن أستطيع أن أذرف دمعة واحدة . ولكن فى تلك اللحظة كنت متضايقاً وكنت أبكى من الأشياء حولى بالرغم من أننى لم أكن حزينا . ولكن عندما أجد نفسى أبكى بغير سبب واضح فذلك معناه أننى رأيت شيئا ضايقنى بالرغم منى ؛ لذا فإننى أتسائل عما إذا كانت رؤية ذلك الفرو الأسطوانى الشكل هى التى جعلتنى أبكى فى تلك الليلة ، أو ربما كان السبب هو الطريق المنتفخ بالجليد ربما جعلتنى تكورات الجليد أتذكر أرضية أخرى متكورة هكذا، وربما يكون السبب شيئاً آخر رأيته فى تلك الليلة رغما عنى .

رأيتـها إذن للمـرة الأولى فى تلك الليلة : كـانت جـالسـة متكورة على نفسـها وكـأنها منكفئة ورأسـها مـائلة . وكـانت متدثرة بملابسـها الثقيلة ويديها بداخل قطعـة الفرو الإسطوانية الشكل فوق حـجرها وسـاقيـها مضمومتين وقدميها فى الهواء .

كانت بلا مواصـفات ولا يبدو لها عمر ولا حياة حتى ، كان يمكن أن تكون امرأة عجوز أو طفلة صغيرة .

ثم إن أسلوبها فى الرد لا يزيد عن لا أعرف أو لا أستطيع بينما كنت أنا الذى لا يعرف ولا يستطيع .

سألتها : هل جئت إلى هنا من أجلى ؟

فقالت : نعم .

فقلت لها : إذن ، هاأنذا .

وقلت لنفسى : وأنا ألم أحضر إلى هنا من أجلها ؟ فما معنى إذن ، هاأنذا ، هاأنذا ؟ .

جلست بجوارها ولكنى سرعان ما انتفضت واقفا وكأنما لسعتنى مكواة ساخنة ، كنت أريد أن أنصرف حتى أعرف أن كل شىء قد انتهى ولكن حتى أتأكد من ذلك طلبت منها قبل أن أنصرف أن تغنى لى أغنية. اعتقدت فى البداية أنها سترفض ، أقصد ببساطة أنها لن تغنى ولكن لا ، فبعد برهة بدأت تغنى وأخذت تغنى لمدة طويلة ، غنت نفس الأغنية ، رددتها مراراً على ما أظن دون أن تغيِّر جلستها .

لم أكن أعرف الأغنية فلم أسمعها من قبل ولا من بعد ولن أسمعها أبدا ، ولكنى فقط من بين كلماتها أذكر كلمة شجرة الليمون أو ربما شجرة البرتقال ، ولا أذكر أيهما بالضبط ، ولكن على كل حال بالنسبة

لى فإن مجرد أنى تذكرت كلمة شجرة الليمون أو شجرة البرتقال يعتبر نجاحاً فى حد ذاته لأننى فى الغالب لا أحفظ شيئاً من الأغانى الأخرى التى أسمعها ؛ لأنه من المستحيل أن نحيا حتى الحياة التى أحياها أنا دون أن نسمع أغنيات من حولنا إلا إذا كان الإنسان أطرش بالفعل . ولكن من جميع الأغنيات التى سمعتها طوال حياتى ، ولقد سمعت الكثير والكثير ، ولم أحفظ منها كلمة أو نغمة أو جملة ، ربما بعض النغمات القليلة جدا أو ربما ... ربما ماذا ؟ يكفى هذا فقد طالت هذه الجملة أكثر من اللازم .

ابتعدت عنها إذن وبينما كنت أبتعد كانت هى مستمرة فى الغناء ، أغنية أخرى أو ربما تكملة نفس الأغنية ، بصوت خفيض وضعيف وكان الصوت يخفت شيئاً فشيئاً بمجرد ابتعادى ويتضاءل كلما ابتعدت حتى اختفى تماماً فى النهاية قد يكون بسبب أنها انتهت من الأغنية أو بسبب أننى ابتعدت كثيرا عنها بحيث لم يعد بمقدورى أن أسمعها . انتابنى الشك بسبب انقطاع الغناء ولم أكن أحب وأنا فى تلك السن أن أعيش مع الشك ، حقيقة كنت أعيش فى شك وتردد مع تقلبات الزمن معى فى تلك الآونة ، ولكنى بالرغم من ذلك لم أكن أطيق هذه اللحظات المليئة بالشك الفعلى الملموس - كما يقولون - ، وكنت أفضل أن أتخلص منها بسرعة لأقطع الشك باليقين حتى لا يلاحقنى الشك أسابيع متتالية مثل أنثى الذباب الضخم .

عدت على أعقابى وخطوت بضعة خطوات إلى الخلف ثم توقفت ، سمعت صوتها ولكنه كان خافتا وضعيفاً ، وتلاشى ... ثم عدت أسمعه ، سمعته إذن وأخذت أنصت إليه فى لحظة ما ؛ لأنه انتشر فجأة بلا بداية

كإنما خرج فجأة من الصمت وانتشر رويداً رويداً تماماً مثل صاحبته . وعندما توقف الصوت فى النهاية خطوت عدة خطوات أخرى نحوها حتى أتأكد من أنها توقفت عن الغناء وليس لأن الصوت ابتعد . وبعد أن يئست من التأكد قلت لنفسى لا يمكن أن أعرف وأتاكد إلا إذا كنت بجانبها وأن أنحنى أيضاً لأراها وأتأكد بنفسى ، وفى النهاية استدرت وعدت من حيث أتيت واليأس يملؤنى . ولكن بعد مرور عدة أسابيع كنت فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة عدت مرة أخرى إلى الدكة وكانت تلك المرة الرابعة أو ربما الخامسة التى أعود فيها إلى الدكة بعد أن هجرتها ، كنت أعود إليها فى نفس الساعة تقريباً وتحت نفس السماء ، أقصد تقريبا تحت نفس السماء ، ليس هذا ما أردت قوله لأن السماء هى دائماً نفسها ولكنها لا تكون أبداً نفس السماء فى كل مرة ، كيف أعبر عن هذا المعنى ، بكل بساطة لن أعبر عنه .

ولكنها لم تكن جالسة على الدكة . ولكنها فجأة أصبحت موجودة على الدكة ، لا أدرى كيف لأننى لم أرها وهى قادمة ولم أشعر أو أحس بصوت عند قدومها رغم أننى كنت أراقب المكان . فلنقل أن الجو كان ممطراً فذلك كفيل بتغيير السرد .

كانت تحتمى من المطر تحت مظلة مطر تحملها فى يدها وبالطبع هذا يدل على أن لديها ملابس ثمينة تود المحافظة عليها . سألتها إذا كانت تأتى إلى هنا كل مساء ، فقالت :

– لا ، من حين لآخر فقط .

وبما أن الدكة كانت مبتلة بشدة فإننا لم نجرؤ على الجلوس عليها . أخذنا نتمشى ذهابا وإيابا وأمسكت بذراعها مدفوعاً بنوع من الفضول

فقد أردت أن أعرف إذا كان ذلك سيسعدنى أم لا ولكنى لم أشعر بأية سعادة ؛ لذا فقد تركت ذراعها . ولكن لماذا كل هذه التفاصيل ؟ لتأخير الأجل .

لمحت وجهها عن قرب فوجدته وجهاً عادياً : وجه مثل ملايين الوجوه ، وعينيها بهما حول ، ولكنى لم ألاحظ ذلك إلا فيما بعد ، لم يدل وجهها عما إذا كانت شابة أو عجوز بل إنه يبدو ما بين النضارة والذبول . وكنت لا أطيق مثل هذا الالتباس حينذاك .

أما إذا أردنا أن نعرف إذا كان وجهها جميلاً ، أو كان جميلاً فى يوما ما ، أو إذا كانت هناك إمكانية ليصبح جميلاً ، فإنى أقر هنا أنه لم يكن بمقدورى أن أعرف ذلك . كنت قد رأيت عدة تصاوير يمكن أن أقول عنها أنها جميلة بمراجعة معلوماتى عن مفهوم الجمال .

أما وجه أبى وهو على فراش الموت فإنه أوحى إلى بضرورة وجود جراحات التجميل للبشر . ولكن ذلك يجعلنا نتساءل عما إذا كانت وجوه البشر ، خاصة تلك التى تزداد فيها التجاعيد تحت البشرة المشربة بحمرة الدم ، هل يمكن اعتبارها مجرد أشياء ؟ .

أخذت أتأمل قطرات مياه المطر ، بالرغم من الظلام حولنا ، وبالرغم من اضطرابى ، لاحظت أن قطرات المياه غير المتحركة وكذلك القطرات التى تتحرك ببطء تبدو وكأنها تود أن تلتحم بقطرات مياه المطر المتساقطة وكأنها عطشى وتريد أن ترتوى . سألتنى إذا كنت أرغب فى أن تغنى لى شيئاً فأجبتها بأننى لا أرغب فى ذلك ، ولكنى أريد أن تقول لى شيئاً وكنت أتوقع أن تقول أنه ليس لديها ما تقوله لى ، فهذا من صميم طبعها . ودهشت أشد الدهشة عندما قالت لى أن لديها غرفة ،

دهشة لذيذة إلى حد ما ، ولكن ما الغرابة فى ذلك فكل إنسان لديه غرفة يقطن فيها ، من لايملك غرفة ؟ آه ها أنا أسمعها وهى تصيح "عندى غرفتان" سألتها : - كم غرفة لديك بالضبط ؟

فأجابت بأن عندها غرفتان ومطبخ .

ومع كل إجابة يزداد العدد وسوف تتذكر ثم تضيف أن لديها حمام .

أعدت عليها السؤال :

- إذن لديك غرفتان ، كما تقولين .

فأجابت :

نعم .

فسألتها :

- والغرفتان متجاورتان الواحدة بجانب الأخرى :

أخيراً وجدنا موضوعاً للحديث يستحق أن يكون حديثاً .

- نعم ولكن المطبخ فى الوسط .

وسألتها لماذا لم تخبرنى بذلك من قبل . وكنت بالطبع ثائرا وغير متحكم فى أعصابى حينئذ لم أكن أشعر بالراحة وأنا بجانبها ولكن - على الأقل - كنت أشعر أننى حر فى التفكير فى شىء آخر سواها ، وهذا فى حد ذاته يعنى كثيراً ، كنت أفكر فى كل ما تعرضت له من أحداث ومرت كلها بخيالى الواحدة تلو الأخرى ، وهكذا ظننت الأحداث تتوالى فى مخيلتى حتى وصلت إلى أقرب حادثة وكأننى وصلت إلى الدرجة الأخيرة فى سلم يفضى إلى مياه عميقة . وكنت أعرف أننى سأفقد حرية التفكير عندما أغادرها وأبتعد عنها :

في الواقع كان لديها غرفتان يفصل بينهما مطبخ ، فهي إذن لم تكذب عليّ . قالت لي أنه يجب أن أذهب وأحضر حاجياتي فأفهمتها أن ليس عندي حاجيات .

كنا نقف فوق أعلى بيت قديم ونرى إذا أردنا رؤية الجبل من خلال النوافذ . أشعلت مصباح كيروسين فسألتها :

– أليس لديك التيار الكهربائي ؟

فأجابت :

– لا ، ولكن عندي المياه الجارية والغاز .

فعلقت على قولها بقولي :

– إذن ، لديك الغاز .

بدأت تخلع ملابسها هكذا هن عندما لا يجدن ما يفعلنه فإنهن يخلعن ملابسهن وهذا بدون شك أفضل ما يستطعن أن يفعلنه !

خلعت جميع ملابسها ببطء شديد يضايق أضخم فيل ولكنها لم تخلع جواربها الشفافة لعلها أرادت بذلك إثارتي إلى أقصى حد . وهنا فقط لاحظت أن عينيها بهما حول .

لحسن الحظ لم تكن هذه أول مرة أرى فيها امرأة عارية ، فبقيت لأني كنت أعرف أنها لن تنفجر .

قلت لها إنني أود أن أشاهد الغرفة الثانية ، لأنني لم أكن قد رأيتها بعد ، وحتى إذا كنت قد رأيتها لقلت لها أنني أرغب في مشاهدتها من جديد .

ولكنها سألتني :

– ألن تخلع ملابسك ؟

فقلت لها :

- لا ، أنا لا أخلع ملابسى إلا فيما ندر .

وهذه حقيقة فأنا لست الذى يخلع ملابسه لكل صغيرة بل كنت أخلع حذائى فقط عند النوم ، أقصد عندما كنت أتقرفص لأنام وأحيانا كنت أخلع الملابس الخارجية طبقاً لحالة الطقس ودرجة الحرارة .

اضطرت إذن إلى أن تغطى نفسـهـا وترتدى "روب دى شـامـبـر" وتصطحبنى إلى الغرفة الأخرى وهى تحمل المصباح فى يدها . ومررنا بالمطبخ وكان بإمكاننا أيضاً أن نمر من الممر الخارجى ، هذا ما عرفته فيما بعد ، ولكن فى تلك المرة مررنا بالمطبخ لا أدرى لماذا ، ربما لأن ذلك هو الطريق المباشر المختصر . نظرت إلى الغرفة برعب فقد كان بها كمية من الأثاث تفوق ما يمكن تخيله . خُيل لى أننى رأيت هذه الغرفة قبل ذلك .

فصحت متسائلاً :

- ما هذه الغرفة ؟

فأجابت :

- إنها غرفة الاستقبال .

فتساءلت فى دهشة :

- غرفة الاستقبال ؟

ثم بدأت أخرج قطع الأثاث من الغرفة قطعة قطعة من الباب المؤدى إلى الممر الخارجى . وأخذت هى تنظر إلى بدون كلمة ويبدو أنها كانت متضايقة ، على ما أظن ، وفى الحقيقة ما كان بوسعى أن أعرف .

سألتنى عما أفعل دون أن تتوقع إجابة على سؤالها . على ما أظن ،

كنت أنا مستمراً فى إخراج قطع الأثاث واحدة واحدة وأحيانا اثنين معاً ، وكدستها فوق بعضها على جدار الممر الذى امتلأ عن آخره بمئات من قطع الأثاث ، قطع كبيرة وقطع صغيرة ملأت الممر حتى باب الغرفة بحيث لم يعد ممكنا الدخول أو الخروج من الغرفة من باب الممر ولكن كان بالإمكان فتح الباب وإغلاقه ، لأنه كان يُفتح ويُغلق من الداخل وليس إلى الخارج ، أما المرور من الباب فلم يعد ممكنا . لايمكن اختراقه ... كلمة كبيرة : اختراق !

قالت لى :

- اخلع قبعتك ، على الأقل .

سوف أحدثكم عن قبعتى مرة أخرى لم يبق فى الغرفة إذن سوى أريكة كبيرة وبعض الأرفف الخشبية على الجدران . قمت بإزاحة الأريكة حتى نهاية الغرفة بالقرب من الباب ، أما الأرفف فقد نزعتها فى اليوم التالى ووضعتها فى الخارج مع بقية الأثاث فى الممر وعندما كنت أنزع الأرفف تذكرت كلمة "ورم" "أو" ليفة" لا أدرى أيهما خطر على بالى لحظتها دون أن أعرف لها معنى ولم يدفعنى الفضول أبداً إلى البحث عن معناهما فى القاموس . كم من الأشياء تخطر لنا ونتركها أو نؤجلها !

عندما انتهيت من إخراج جميع قطع الأثاث من الغرفة ألقيت بنفسى على الأريكة . أما هى فإنها لم تكلف خاطرها بمساعدتى وأنا أنقل الأثاث ولكنها سألتنى فى النهاية :

- هل أحضر لك بعض الملاءات والأغطية ؟

ولكنى لم أحب الملاءات طوال حياتى ولم أستعملها أبداً .

فقلت لها :

- ألا يمكنك إغلاق الستائر ؟

كان زجاج النافذة مغطى بالجليد من الخارج وبالرغم من ظلام الليل ومن أن الجليد لم يكن يبدو أبيض إلا أنه كان يعطى بعض الضوء . وبالرغم من أننى رقدت على الأريكة وقدماى فى اتجاه باب الغرفة إلا أن النور البسيط الشاحب البارد القادم من زجاج النافذة ضايقنى ، فقمت فجأة وأدرت اتجاه الأريكة أى أننى جعلت ظهر الأريكة الذى كان مستنداً على الجدار فى الإتجاه المعاكس ، ثم تسلقت ظهر الأريكة ورقدت عليها ووجهى فى اتجاه الحائط حيث يستند مقعد الأريكة على الحائط حالياً . تسلقت إذن ظهر الأريكة مثلما يفعل الكلب عندما يتسلق جدار السلة ليرقد بداخلها . سألتنى :

- هل أترك لك المصباح ؟

ولكنى رجوتها أن تأخذه معها . ولكنها عادت تسألنى :

- وإن إحتجت شيئا أثناء الليل ؟

وأوشكت أن تفتح موضوعاً للمناقشة ، هذا ما شعرت به ، عندما سألتنى من جديد :

- هل تعرف كيف تذهب إلى الحمام ؟

كان الحق معها لأننى لم أفكر فى الحمام فعندما يجد المرء نفسه مستريحاً فى فراشه تنتابه الفرحة ولكنه بعد قليل يشعر "بحاجة ملحة" فقلت لها :

- إحضرى لى "وعاء للتبول أثناء الليل " .

أحببت هذا التعبير ، أقصد أحببت ترديده كثيرا" وعاء للتبول أثناء الليل" ، لأنه يذكرنى بالشاعر "راسين" أو "بودلير" ، لا أدرى أيهما

بالضبط ربما الاثنان معاً ، نعم ، كنت أقرأ الكثير وبعد قراءتهما كنت أصل إلى حيث تنتهى الكلمة والفعل ، كأنما نقرأ شعر "دانت" .

ولكن لم يكن لديها "وعاء للتبول أثناء الليل" . فقالت إن عندها مقعد مثقوب ، وتراءت لى الجدة العجوز وهى جالسة فوقه بكل فخر ولكنها جافة ومنتصبة كالوتد ، ربما اشترت المقعد المثقوب من مزاد ، عفوا أقصد أنها اقتنته من مزاد خيرى ، من يانصيب خيرى ربما ، فهو قطعة أثاث أثرية ، كانت تحتضن المقعد المثقوب أو – على الأقل – تحاول احتضانه كأنما تود أن يراها أحد وهى فى هذا الوضع .

فقلت لها :

– أعطينى إذن وعاء عاديًا ، أنا لست مريضاً بالزُحار . فعادت بعد قليل وهى تحمل قدرة ، لم تكن قدرة بمعنى الكلمة فلم يكن لها يد طويلة بل كانت بيضاوية الشكل ولها يدان وغطاء .

– هذا قدر يصلح لكل شىء .

فقلت لها :

– لن أحتاج لغطاء القدر .

فرددت بدهشة :

– لن تحتاج للغطاء ؟

لو أننى قلت لها إننى محتاج للغطاء لرددت أنت محتاج للغطاء أخذت منها القدرة ووضعتها تحت الأغطية ، لأنى أحب أن أمسك بشىء فى يدى عند النوم ، مما يقلل شعورى بالخوف .

كانت قبعتى لا تزال مبللة فأدرت وجهى ناحية الجدار .

اتجهت هى نحو المدفأة ، وأخذت المصباح الذى كانت قد وضعته فوق جدار المدفأة ، بكل تحديد ، نعم يستحسن التحديد ، أخذ شبحها على ضوء المصباح يتحرك فوقى وظننت أنها ستغادرنى ولكن على العكس جاءت وانحنت فوق ظهر الأريكة نحوى وهى تقول أن كل ذلك يعتبر شئون عائلية .

ولو أننى فى مكانها لغادرت الغرفة على أطراف قدمى ،لكنها لم تتحرك . أهم ما فى الأمر أننى بدأت أحس أننى لم أعد أحبها .

نعم ، كنت أحس بأننى أفضل حالا من ذى قبل وأننى بدأت مرحلة مقاومة الهبوط التدريجى والمتاهات التى غرقت فيها منذ مدة ، والتى حُرمت خلالها من انتشال نفسى منها وكل ذلك بسببها .

كنت قادما لتوى ولا أفكر إلا فى النوم قبل كل شىء .

قلت لها :

– من المستحيل أن تحاولى طردى الآن .

لم أع ما قلته ، أو بالأحرى خُيل إلى أننى لم أفهم معنى الكلمات التى نطقت بها ولم أعيها إلا بعد عدة ثوان . حتى أننى لم أسمع سوى صوتى وأعيه ، لأننى كنت غير معتاد على الكلام لذا فقد كنت أحيانا أنطق ببعض الجمل السليمة من ناحية اللغة والنحو ولكنها بدون معنى ، ليس بدون معنى تماما لأننا إذا تعمقنا فيها فإن لها معنى وأحيانا معانٍ ولكن ليس لها مبرر أو أساس .

ولكنى كنت أسمع صدى صوتى بمجرد أن أنطق بها .

وفى تلك المرة سمعت صوتى بوضوح شديد ربما لأول مرة جاءنى صوتى ببطء شديد .

استدرت لأرى تأثير جملتى عليها ورأيتها تبتسم .

وبعد قليل أخذت المصباح وانصرفت .

سمعتها وهى تخترق المطبخ ثم تدخل غرفتها وتغلق باب الغرفة خلفها . أخيراً أصبحت وحدى فى الظلام ، أخيراً . ولن أقول أكثر من ذلك ، واعتقدت أن أمامى ليلة مريحة ، ونوم عميق بالرغم من غرابة المكان حولى ، ولكن على عكس ما توقعت كانت ليلتى مضطربة جدا .

استيقظت فى صباح اليوم التالى وأنا منهوك القوى وملابسى فى حالة من الفوضى من حولى ، وكذلك الأغطية وآن بجوارى عارية تماما بالطبع . لقد أجهدت نفسها بدون شك لأننى كنت ما أزال ممسكا بالقدرة فى يدى فنظرت بداخلها ، واتضح لى أننى لم أستخدمها ، ونظرت إلى عضوى ، آه لو استطاع أن ينطق ، لن أقول أكثر من ذلك ، كانت ليلة حب .

وانتظمت حياتى رويداً رويداً فى هذا البيت . كانت تحضر لى وجباتى فى المواعيد التى حددتها لها ، وتأتى من وقت لآخر لترى إذا كنت على ما يرام أو إذا كنت أحتاج شيئاً ، وكانت تفرغ القدرة مرة فى اليوم وترتب الغرفة مرة فى الأسبوع .

ولم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من الحديث معى لإشباع فضولها ولكن بصفة عامة لم يكن عندى مجال للشكوى منها . ومن وقت لآخر كنت أسمعها وهى تغنى فى غرفتها فتخترق الأغنية باب غرفتها وتمر عبر المطبخ ثم عبر باب غرفتى وتصل إلىّ ضعيفة خافتة ولكنها واضحة وربما مرت الأغنية عبر الممر أيضاً . لم أكن أتضايق من سماعها تغنى من حين لآخر . وذات يوم طلبت منها أن تحضر لى زنبقة نضرة فى

أصيص فأحضرتها لى ووضعتها فوق إطار المدفأة ، فلم يكن فى غرفتى أية قطعة أثاث يمكن وضع شىء فوقها إلا إطار المدفأة وألا يتم وضعها على الأرض .

كنت أنظر يومياً إلى الزنبقة ذات اللون الوردى رغم أننى كنت أريد زنبقة زرقاء . فى البداية كانت الزنبقة نضرة بل أنها أعطتنى عدة زهرات ولكنها سرعان ما ذبلت ولم يبق سوى جذع مائل وكأنه ينتحب وسط عدة أوراق باكية بينما جذور الزهرة قد برزت من طينة الأصيص كأنما تبحث عن الأكسجين وتناثرت منها رائحة كريهة . فأرادت "آن" أن ترميها ولكنى طلبت منها أن تتركها فأرادت أن تشترى لى واحدة أخرى ولكنى قلت لها أننى لا أريد غيرها .

ولكن ما كان يضايقنى أشد الضيق هو بعض الأصوات والضحكات والتأوهات التى كانت تملأ الشقة في ساعات معينة سواء بالليل أو بالنهار ، ولم أكن خلالها أفكر فى آن بالمرة بل كنت فقط أحتاج للهدوء لأعيش حياتى . حاولت أن أعقِّل نفسى وأقنع نفسى أن الهواء والجو من حولى يمكن أن يحتوى على بعض الضوضاء ، وأن الضحكات والتأوهات جزء من العالم من حولى ولكنى رغم ذلك لم أكن أطيقها ولم أستطع أن أحدد إذا كانت الضحكات والتأوهات تصدر من نفس الشخص أو إذا كان هناك عدة أشخاص ، فالضحكات الصغيرة والتأوهات تتشابه بشدة !

ولكنى فى ذلك العهد كنت أتضايق جداً من هذه الأشياء المميزة بالرغم من تفاهتها . وفى كل مرة أفكر فيها كنت أقع فى نفس الفخ حيث لا يستريح قلبى ولا أتوصل للحقيقة .

أخذ منى التفكير وقتا طويلاً ، ربما عمراً بأكمله ، حتى أدركت أن بعض الأشياء الصغيرة مثل لون عين نصف مفتوحة ، أو مصدر صوت بعيد ، هى أقرب إلى الفهم ، وسط جحيم الجهل ، من وجود الله أو من وجود المادة الحية فى الخلايا أو من وجود الذات وتتطلب مزيداً من الحكمة وليس البعد عن الحكمة والعقل .

عمراً بأكملة كثير على مجرد التوصل إلى هذه الخلاصة المواسية فليس أمامكم متسع من الوقت للإستفادة منها ؛ لذا فقد استفدت كثيراً عندما سألتها وناقشتها فى الأمر فقالت لى أن ذلك بسبب الزبائن الذين كانت تستقبلهم بالتناوب .

كان بوسعى أن أنهض من مكانى وأن أذهب تلقائياً للنظر من ثقب مفتاح الباب ، إذا افترضنا أن الثقب غير مسدود ، لكن ماذا يمكن أن نرى من مثل هذا الثقب ؟

فقلت لها :

– إذن أنت تعيشين من الدعارة .

فأجابتنى :

– نحن الإثنين ، نعيش من الدعارة .

فقلت لها وكأننى أصدق بالفعل ما قالته لى :

– ألا تستطيعين أن تطلبى منهم أن يخفضوا من أصواتهم أو أن يصدروا ضجيجاً مختلفاً .

فأجابت :

– لابد وأن يصيحوا هكذا .

فقلت لها :

سأضطر إلى الرحيل .

فبحثت فى مستودع أسرتها عن بساط قديم ووضعت بساطاً على باب غرفتها وآخر على باب غرفتى .

سألتها إذا كان بالإمكان أن تحضر لنا من وقت لآخر جزر أبيض لنأكله .

فتساءلت فى دهشة وكأنما طلبت منها أن تذبح لى رضيعاً يهوديا لنأكله :

- جزر أبيض ؟ !

فشرحت لها أن الجزر الأبيض له موسم محدد وأننا فى نهاية هذا الموسم ، وأنها لو استطاعت أن تطبخ لى عدة مرات طبقاً من الجزر الأبيض قبل انتهاء الموسم فسأكون لها شاكراً وممنوناً . كنت أحب الجزر الأبيض لأن طعمه شبيه بطعم زهرة البنفسج وأحب زهرات البنفسج لأن لها رائحة الجزر الأبيض ، وإذا لم يتواجد الجزر الأبيض فى هذه الدنيا فإن زهر البنفسج لن يصبح محببا إلى نفسى وإذا لم يتواجد زهر البنفسج فإن الجزر الأبيض سيصبح غير ذى أهمية بالنسبة لى - تماما - مثل الفجل واللفت .

وفى الحالة الراهنة للنباتات فى العالم ، أقصد فى هذاالعالم حيث يتواجد الجزر الأبيض وزهرة البنفسج ويتعايشان فإننى بوسعى أن أستغنى بكل سهولة عن الاثنين معا .

وذات يوم أعلنت لى بكل وقاحة أنها حامل فى أربعة أو حتى خمسة أشهر وأننى والد الجنين . واستدرت ووقفت وقفة جانبية حتى ألمح بروز

بطنها وانتفاخها . ثم خلعت ملابسها ، بدون شك لتثبت لى أنها لا تضع وسادة صغيرة فوق بطنها وربما يكون ذلك لمجرد المتعة فى خلع الملابس .

قلت لها ربما يكون ذلك مجرد انتفاخ فى الأمعاء حتى أرفع من معنوياتها وأهدأ من روعها فنظرت إلىّ بعينيها الواسعتين اللتين لا أتذكر أبدا لونهما ، أو بالأحرى بعين واحدة لأن عينها الأخرى كانت فى اتجاه آخر ربما تنظر إلى أصيص الزنبقة أو ما تبقى منها . وكان الحول فى عينها يزداد كلما تعرت .

قالت لى وهى تنحنى تحت ثدييها :

– أنظر جيداً إن الدائرة تتسع وتبدو واضحة .

استجمعت كل قواى وقلت لها :

– أجهضى نفسك ، أجهضى نفسك حتى لا تكتمل الدائرة .

كانت قد أزاحت الستائر حتى تبدو استداراتها بوضوح ، فنظرت إلى الجبل من خلال النافذة ، الجبل الذى لا يتأثر بشىء ، ويحتفظ بأسراره فى كهوفه العديدة ، والذى أسمع صوت الريح وهى تهب عليه ليلاً ونهاراً ، وصوت الكروان وأصوات ضربات مفاعل العمال الذين ينحتون الجبل بضربات خفيفة بحثاً عن الرخام الصوانى .

سأخرج فى النهار لأ تمتع بحرارة الزهور البنفسجية وبعبيرها البرى أما فى الليل فأشاهد أضواء المدينة البعيدة إذا رغبت فى ذلك والأضواء الأخرى أيضاً ، أضواء الفنارات والبواخر الإرشادية والتى علمنى والدى أسماءها جميعاً وسوف أعثر على تلك الأسماء فى ذاكرتى إذا رغبت فى ذلك بكل تأكيد .

ومنذ ذلك اليوم تدهورت الأمور بيننا فى هذا البيت ، خاصة بالنسبة لى . سارت الأمور إلى أسوأ ، ليس لأنها بدأت تهملنى فما كان بمقدورها أبداً أن تهملنى ، ولكن لأنها كانت لا تكف عن المثول أمامى فى كل لحظة لتقتلنى "بطفلنا" وهى ترينى بطنها وثديها وتقول لى إنه سيأتى إلى هذه الدنيا بين لحظة وأخرى وأنها تحس به وهو يتحرك منذ الآن .

فقلت لنفسى :

"إذا كان يتحرك هكذا فهو ليس من صلبى " .

لم تكن أحوالى رديئة فى هذا البيت ، وبكل تأكيد لم تكن معيشتى فيه مثالية ولكن على كل حال كنت أقدر المزايا المتوفرة فيه . ترددت فى ترك البيت لأن أوراق الشجر بدأت تتساقط وكنت أخاف من الشتاء .

يجب ألا نخاف من الشتاء فله أيضاً حسناته : الجليد يوحى بالدفء ويخفف من الضوضاء ونهار الشتاء الشاحب ينتهى بسرعة . ولكنى فى تلك الآونة لم أكن أعرف طيبة الأرض وكرمها على الذين لا يملكون سواها وأن الأحياء يجدون فى الأرض كثيراً من المقابر .

أما ما قضى علىّ - تماما - فهو الولادة ، لقد أيقظتنى ما الذى يجب أن يأخذه هذا الطفل ؟

أظن أن إحدى السيدات جاءت وبقيت معها فى الغرفة لأنى كنت أسمع من حين لآخر خطوات فى المطبخ .

كنت أتألم بشدة لأنى سأغادر بيتا لم يطردنى أحد منه . تسللت من فوق ظهر الأريكة وارتديت سترتى وفوقها معطفى ثم قبعتى، لم أنس شيئا ، ثم ربطت رباط حذائى قبل أن أفتح الباب المطل على الممر ، وبالرغم من قطع الأثاث الملقاة فى فوضى فى الممر والتى كانت تعيق المرور فيه إلا أننى نجحت فى المرور منه بعد عدة تسلخات وكسور

وفرقعات . تكلمت فى البداية عن زواجى ولكن فى الواقع كان ذلك نوعًا من الارتباط . وما كان لى أن أشعر بحرج خاصة أن صيحاتها وصراخها فاق الحدود ، وبكل تأكيد كانت تلك أول ولادة لها . ولاحقتنى صرخاتها حتى أول الشارع ، فتوقفت أمام باب البيت الخارجى وأخذت أدقق السمع فسمعت صرخاتها المتواصلة ربما ما سمعتها لو أننى لم أكن أعرف أن هناك صرخات فى ذلك البيت ولكن لأنى كنت أعرف فقد سمعتها جيداً .

لم أكن أعرف أين أنا بالضبط ، وأخذت أبحث وسط النجوم والكواكب عن الدب الأكبر والدب الأصغر ولكنى لم أتمكن من العثور عليهما ، ولكنهما متواجدان بكل تأكيد ، فقد كان أبى أول من دلّنى عليهما وعلى غيرهما من النجوم والكواكب ولكنى لم أنجح وحدى أبداً فى التعرف عليهما .

أخذت ألهو بالإنصات إلى صرخاتها أو ألعب نفس اللعبة التى لعبتها من قبل بالإنصات إلى أغنيتها ، أى أبتعد بضعة خطوات ثم أعود أدراجى وأتوقف ثم أتقدم وأتوقف ، إذن كان من الممكن تسمية ذلك لعبة لم أكن أسمعها عندما أسير بسبب صوت خطواتى ولكن ما أن أتوقف عن السير حتى أسمعها من جديد ، ضعيفة وواهنة المرة بعد المرة ، ولكن ما الفرق إذا كانت الصرخة ضعيفة أو قوية ؟ فالمهم هو أن تتوقف الصرخة .

وظللت لسنوات طوال أعتقد أن تلك الصرخات ستتوقف ولكنى الآن لم أعد أعتقد ذلك ، ربما كان من الضرورى أن أقع عدة مرات أخرى فى الحب ولكن الحب لايخضع للإرادة ولا يأتى بناء على طلبنا .

(انتهت)

(١٩٤٥)

الصُحبة

لنتخيل . صوت يصل إلى إنسان فى الظلام صوت يصل لظهر إنسان فى الظلام .

الظهر فقط حتى لا نذكر غيره والطريقة التى يتغير بها الظلام عندما يفتح عينيه ثانية ثم عندما يغلقهما من جديد . جزء ضئيل جداً مما يقال يمكن أن نتحقق منه . مثلاً عندما يسمع : إنك على ظهرك فى الظلام . فهنا لا يمكن إلا أن يتقبل ما يقال . ولكن معظم ما يقال بعيداً جدا عن إمكانية التحقق منه . مثلاً عندما يسمع : أنت تعيش يوم كذا ويوم كذا . فقد يحدث أن يختلط الإثنان مثلا أنت تعيش يوم كذا وكذا يوم وأنت الآن على ظهرك فى الظلام . ربما تكون حيلة تهدف إلى إنارة أحد المفهومين وإلقاء الضوء على غموض المفهوم الآخر . هذا هو الاقتراح إذن . صوت ينساب فوق ظهر إنسان فى الظلام يُفتت له الماضى . أحيانا يبدو الحاضر أيضاً من وقت لآخر ولكن نادراً ما يظهر المستقبل . مثلاً ستنتهى كما أنت .

وفى ظلام آخر أو فى نفس الظلام إنسان آخر . لنتخيل كل ذلك ولنتمتع بالصحبة . اكتم السر . استخدام ضمير المخاطب من رجع الصوت .

أما ضمير الغائب فإنه صوت الآخر . إذا استطاع هو أن يتكلم يُكلم مَن ؟ ، وعن مَن يتكلم الصوت ؟ قد يكون هناك ثالث . ولكنه لا يستطيع ذلك . ولن يفعله . أنت لا تستطيع ذلك . أنت لن تفعل ذلك .

فيما عدا الصوت وصدى أنفاسه ليس هناك أى ضجيج يستطيع هو أن يسمعه على الأقل صدى أنفاسه الواهنة تخبره بذلك .

بالرغم من أنه يركز الآن على الأسئلة فإنه لايستطيع إلا أن يتساءل إذا كان الصوت يتحدث إليه ، ألا يمكن أن يكون قد التقط حديثاً مُوجه لإنسان آخر ؟ إذا كان وحيداً ممدداً على ظهره في الظلام فلماذا لا يقول له الصوت ذلك ؟ لماذا لا يقول له الصوت مثلاً أنت تعيش يوم كذا وكذا يوم وأنت الآن وحيد ممدد على ظهرك فى الظلام ؟ لماذا ؟ ربما الهدف الوحيد هو خلق هذه البلبلة فى ذهنه وهذا الشعور بالضيق كان ذهنك دائماً غير نشيط وهو الآن أقل نشاطا من أى وقت مضى . هذا النوع من التأكيدات يتقبله عن طيب خاطر أنت وُلدت يوم كذا وكذا وذهنك غير النشيط - دوماً - هو الآن أقل نشاطاً من أى وقت مضى . ولكن يلزم الآن مشاركة في الصحبة قليل من النشاط الذهنى مهما كان ضعيفاً . لهذا السبب لا يقول الصوت، أنت ممدد على ظهرك فى الظلام، وذهنك ليس له أى نشاط من أى نوع .

إن الصوت وحده يعتبر صحبة ولكن ليس ذلك كافياً . إن تأثير الصوت على السامع يعتبر إضافة ضرورية ، حتى وإن لم تكن إلا ذلك الشعور الغامض بالضيق وهذه البلبلة المذكورة بعاليه . ولكن وحتى وإن وضعنا جانباً مسألة الصحبة فإن هذا التأثير يفرض نفسه ، لأنه إذا كان عليه فقط أن يسمع الصوت وألا يكون للصوت تأثير عليه وكأنه كلام بلغة إفريقية أو بلغة اسكتلندية ، فكان من الأفضل أن يصمت الصوت . إلا إذا كان هدف الصوت هو مجرد قطع الصمت ، وتعذيب عاشق

الصمت بإسماعة مجرد صوت ليس إلا . أو بالبداهة – وكما ذكرنا – مسبقاً أن يكون الصوت موجّها لإنسان آخر .

وأنت طفل صغير تخرج من محل جزارة "كونولى" ممسكا بيد أمك . تسيران معاً يمينا وتتقدمان فى صمت وتسلكان الطريق نحو الجنوب . وبعد حوالى مائة خطوة تدخلان البيت وتصعدان نحو المسكن . تتقدمان فى صمت نحو الهواء الرطب الهادى فى الصيف . الوقت بعد العصر وبعد مائة خطوة تبدو الشمس فوق قبة الكنيسة . ترفع أنت رأسك نحو السماء الزرقاء ثم نحو وجه أمك وتقطع الصمت وأنت تسألها إذا لم تكن الشمس أبعد بكثير مما تبدو والسماء الزرقاء تسمع نفسها . أنت لا تسمع جوابا من أمك فتعيد صياغة السؤال ، ثم ترفع رأسك مائة خطوة أخرى بعيداً ثم ترفع رأسك نحو وجه أمك مرة أخرى وتسألها إن لم تكن الشمس أبعد بكثير مما تبدو فى الواقع . لسبب ما لم تستطع أنت أبداً أن تفهمه . ضايقها سؤالك كثيراً لأنها سحبت يدها من يدك وتركت يدك معلّقة فى الهواء وكأنها ترقص رقصة فالس ، وألقت عليك إجابة جارحة لا تُنسى .

إن لم يكن الصوت يتحدث إليه فإنه يتحدث حتما إلى إنسان آخر . وهكذا بدأ يفكر بما تبقى له من فكر . يتحدث الصوت إلى آخر عن ذلك الآخر أو عنه . أو ربما عن شخص آخر أيضا . أو إلى آخر عن ذلك الآخر أو عنه أو عن شخص آخر أيضاً إلى شخص ممدد على ظهره فى الظلام فى جميع الأحوال ، إن كان هو أو شخص آخر . وهكذا بما تبقى له من عقل بدأ يفكر ولكن تفكيراً خاطئاً . إذا كان الصوت

لا يتحدث إليه ولكن يتحدث إلى آخر فإن الصوت يتحدث عن ذلك الآخر بكل تأكيد وليس عنه أو عن شخص آخر . بما أن الصوت يتحدث بضمير المخاطب . إذا كان الصوت لا يتحدث عن الشخص الذى يخاطبه فإن الصوت لن يستخدم ضمير المخاطب وإنما يستخدم ضمير الغائب . سيقول الصوت مثلا ، إنه ولد فى يوم كذا وكذا ، والآن هو ممدد على ظهره فى الظلام . من البديهى إذن إذا كان الصوت لا يتحدث عنه إليه ولكن إلى شخص آخر فإن الصوت لا يتحدث وإنما عن ذلك الآخر وليس أيضاً عن أى شخص آخر ، وهكذا بما تبقى له من عقل أخذ يفكر تفكيراً خاطئا .

وحتى يتسنى له أن ينعم بالصحبة فإن عليه أن يثبت ويظهر بعض النشاط الذهنى ولكن ليس من الضرورى أن يكون باهراً . بل يمكن القول أنه من الأفضل ألا يكون باهراً إلى درجة ما . سينعم بالصحبة أكثر إذا كان باهراً أقل إلى درجة ما .

لقد رأت عيناك النور لأول مرة فى نفس الغرفة التى نام فيها والداك معاً يوم أن حملت فيك أمك . النافذة العريضة فى الغرفة تطل على الجبل غرباً . تطل أساساً على جهة الغرب النافذة العريضة تطل أيضاً على الجنوب وعلى الشمال بالضرورة تطل قليلاً على الجنوب حيث الجبل وعلى الشمال حيث الوادى . الطبيب المولِّد هو الدكتور هادن أو هدن وهو طبيب باطنى . له شارب طويل رمادى ويبدو عليه القلق الشديد .

يوم مولدك كان يوم عطلة رسمية ، لذا فإن والدك ما أن التهم إفطاره حتى غادر الدار وهو يحمل لفافة بها بعض السندوتشات بالبيض كما

يفضله ، وكذلك أيقونة صغيرة بها نبيذ اسكتلندى وذهب لنزهة جبلية . كان ذلك عادياً جداً بالنسبة له ، ولكن فى ذلك الصباح لم يكن دافعه لهذه النزهة الجبلية هو حبه للتريض فقط أو السير على الأقدام وحبه للطبيعة البرية . لكن كان هناك الضيق الشديد الناتج عن الآلام والمظاهر الأخرى غير المحببة التى تصاحب عملية الوضع . وما أن وصل قرب الظهر إلى قمة الجبل حتى جلس تحت ظل شجرة وارفة الظلال أمام البحر وأخذ يلتهم سندوتشاته . ويمكنك أن تتخيل أفكاره أثناء وقبل وبعد قطفه للزهور البرية المتناثرة حوله .

عاد والدك إلى البيت بعد الغروب وفضّل الدخول من باب الخدم وأبلغته الخادمة أن عملية الوضع لا تزال على أشدها مما أذهله . لا تزال نفس عملية الوضع مستمرة كما تركها منذ عشر ساعات عندما غادر البيت من قبل . دون أن ينبس بحرف جرى نحو المخزن فى نهاية الحديقة حيث تقف سيارته . استقل السيارة وأغلق بابها خلفه واعتدل فوق مقعد القيادة . يمكنك أن تتخيل أفكاره وهو قابع خلف عجلة القيادة ينتظر فى الظلام وهو لا يدرى كيف يفكر . وبالرغم من إجهاده الشديد والألم الذى يمزق قدميه إلا أنه كان على أهبة الاستعداد لإدارة محرك السيارة والسير بها وسط الحقول تحت ضوء القمر ، إلا أن الخادمة أسرعت إليه مهرولة وأخبرته أن كل شىء قد انتهى أخيراً . انتهى !

وأنت عجوز تسير بخطى بطيئة وثقيلة فى طريق ضيق فى الريف . لقد خرجت فى الفجر وأقبل عليك الليل الآن ليس هناك أى صوت وسط الصمت المطبق إلا صوت خطواتك . تنصت إلى صوت كل خطوة

تضيف عددها إلى المجموع المتزايد للخطوات السابقة . تتوقف ورأسك تنخفض نحو البئر وتجمع عدد الخطوات وتحولّها إلى أمتار . كل خطوتين تكونان الآن متراً . عدد الخطوات والأمتار منذ الفجر وحتى الآن يجب أضافتها إلى أمتار اليوم السابق ، ثم إلى عدد أمتار العام السابق ثم السنوات السابقة . زمن مختلف عن الحاضر ولكنه متشابه جداً . المجموع ضخم جداً بالكيلو مترات وبالأميال . كم مرة محيط الكرة الأرضية ؟ ظل والدك بجانبك هو أيضا بلا حراك أثناء قيامك بالعد وبجمع الكيلو مترات . والدك يرتدى أسماله البالية ، بذلة موظف السكك الحديدية . أخيراً تسيران جنبا إلى جنب وتبدآن من الصفر من جديد .

الصوت يأتيه تارة من ناحية وتارة من ناحية أخرى . تارة يأتيه الصوت مستهلكاً من شدة البعد وتارة أخرى يأتيه همساً فى الأذن وأثناء الجملة الواحدة يمكن أن يتغير الصوت حجماً ومكاناً . مثلاً يأتيه الصوت بوضوح من فوق وجهه المُنكس ، لقد رأت عيناك النور لأول مرة يوم عيد الفصح والآن . ثم يأتيه الصوت همساً فى أذنه ، أنت ممدد على ظهرك فى الظلام . أو بكل تأكيد بالعكس . هناك علامة أخرى هى أوقات الصمت الطويلة حيث يعتقد أو يجرؤ على أن يأمل أن يكون الصوت قد قال كلمته الأخيرة . نفس المثال يأتيه الصوت بوضوح من فوق وجهه المُنكس ، لقد رأت عيناك النور لأول مرة يوم صعود المسيح إلى السماء والآن . ثم بعد طول صمت وبعد أن يولد فى قلبه الأمل يأتيه الصوت همساً ، أنت ممدد فوق ظهرك فى الظلام . أو بكل تأكيد العكس .

هناك علامة أخرى وهى التكرار . إلى الأبد نفس الماضى مع تغيير طفيف . كأنما الهدف هو جعله ينساق بالقوة ويجعل هذا الماضى ماضيه . ليعترف ، نعم إننى أتذكر . ليهمس ، نعم إننى أتذكر . أية مساهمة فى الصحبة ستكون إذن . صوت يتكلم بضمير المتكلم المفرد همساً من بعيد لبعيد ، نعم إننى أتذكر .

شحاذة عجوزة نصف ضريرة تحاول بكل قوتها فتح باب الحديقة . إنك تعرف المكان جيداً . ربة البيت طرشاء لا تسمع شيئاً ألبته ولا تملك كل قواها العقلية ولكنها على وفاق مع أمك . كانت متأكدة من أنها تستطيع أن تطير فى الهواء ، لذلك فقد ألقت بنفسها يوماً من نافذة الطابق الأول . عند عودتك من روضة الأطفال وأنت فوق دراجتك الصغيرة ، لمحت الشحاذة العجوزة وهى تحاول جاهدة أن تفتح باب الحديقة ، أنت تنزل من فوق دراجتك وتفتح لها الباب ، فتدعى لك وتباركك. ماذا كانت كلماتها؟ ليجازيك الله على ذلك يا سيدى الصغير . وفى نفس السياق ، ليحفظك الله يا سيدى الصغير .

صوت ضعيف حتى فى أشد قوته . ثم يتراجع الصوت رويداً رويداً حتى حدود السمع . ثم يعود ببطء إلى أقصى درجات الضعف . ومع بداية كل تراجع يولد ببطء الأمل فى أن يتلاشى الصوت ويموت . عليه أن يعرف أن الصوت سيعود . ولكن هذا لا يمنع أنه مع كل تراجع بطئ يولد من جديدالأمل فى أن يتلاشى الصوت ويموت .

دلف رويداً رويداً فى الظلام وفى الصمت وتمدد . وبعد وقت طويل جداً وبما تبقى له من قدرة على الاعتقاد ، أعتقد أن الصوت أصبح بلا رجعة . ولكن يوما ما عاد الصوت . يوم !

أخيراً . ثم أخيراً كان الصوت يقول ، أنت على ظهرك فى الظلام . تماماً مثل أول كلمات الصوت . استراحة طويلة جعلته لا يصدق أذنيه ثم نفس الكلمات . ثم جاء القسم بعدم التوقف أبداً إلا مع فقدان السمع . أنت ممدد على ظهرك فى الظلام وهذا الصوت لن يتوقف أبداً إلا بعد أن تفقد سمعك . وبينما هو بين الحياة والموت وبين النور والظلام حيث تباعدت الأصوات وأصبحت نادرة ، انساب الصمت والظلام رويداً رويداً . ستدوم الصحبة ، ربما . أية أصوات من بعيد لبعيد ؟ من أين يأتى نصف الظلام .

أنت واقف فوق حافة مقفز (منط) عالٍ فوق البحر ، وعلى صفحة ماء البحر وجه والدك مقلوب . وجهه مقلوب نحوك وأنت تنظر إلى أسفل إلى ذلك الوجه المحبوب الصديق . والدك يصرخ فيك لتقفز . يصرخ ويقول لك تشجع ! الوجه المستدير الأحمر . والشارب الكثيف والشعر الرمادى . الأمواج المضطربة تغطى الوجه وتقذف به بعيداً . ويأتيك النداء عن بعد : تشجع ! العالم ينظر إليك ، ومن الماء البعيد ومن الأرض الصلبة .

صوت من بعيد لبعيد . إنها نعمة وأية نعمة فى اللجوء إلى ذلك فى الظلام والصمت تغمض عينيك وتسمع صوتا . شئ ما يترك مكانه ويتحرك لمكانه الأخير . بشئ رخو يتحرك برخاوة حتى لا يضطر إلى الحركة بعد ذلك . فى الظلام المرئى ، تغلق عينيك ولا تسمع سوى ذلك . شئ رخوة يتحرك برخاوة حتى لايضطر إلى الحركة بعد ذلك .

الصوت يحدث بريقاً . يضىء الظلام بينما الصوت يتكلم ثم يتكثف الظلام حين ينخفض الصوت . يضىء الظلام عندما يعود الصوت إلى

أضعف قوته . ويعتدل حين يصمت الصوت. أنت على ظهرك فى الظلام . لو كانت عيناك مفتوحتين لرأتا أن هناك تغييراً .

من أين يأتى نصف الظلام ؟ وما هى الصُحبة فى الظلام ؟ إغلق عينيك وحاول أن تتخيلها . من أين يأتى نصف الظلام ، فى الماضى ؟ ليس هناك منبعًا واضحًا . كأن فراغه الصغير يضئ فجأة بلا حرارة . ماذا كان بإمكانة أن يرى من فوق وجهه المُنكس ؟ أغمض عينيك فى الظلام وحاول أن تتخيل ذلك .

علامة أخرى مميزة هى النبرة الرتيبة . بدون حياة ، نفس النبرة دائماً . عند التأكيدات وعند النفى وعند الاستجواب وعند علامات التعجب وعند الإرشادات . كنت فى الماضى لم تكن أبدا . هل تواجدت يوما ؟ آه ، ما تواجدت أبدا ! كن من جديد . نفس النبرة الرتيبة .

هل يمكن أن يتحرك ؟ هل يتحرك ؟ هل يجب أن يتحرك ؟ ربما يساعده ذلك خاصة عندما يضعف الصوت . حركة بسيطة مهما كانت صغيرة . حتى مجرد يد تُغلَق أو تُفتَح أن كانت مغلقة فى البداية . كم سيساعده ذلك فى الظلام .

يغمض عينيه ويرى تلك اليد . باطن يد مفتوحة تملأ حقل الرؤية خطوط الكف . الأصابع التى تنثنى ببطء أو التى تنفرد إذا كانت منثنية منذ البداية . خطوط الكف فى باطن اليد العجوزة .

هناك العين بالطبع . تملأ المجال . الجفن ينسدل ببطء مثل الحجاب أو ينسحب إلى أعلى إن كان منسدلاً منذ البداية . المقلة حدقة العين ليس إلا جاحظة عمودياً ، منسدلة أو منسحبة ، منسدلة من جديد ثم منسحبة مرة أخرى .

وإذا تكلم فى النهاية . حتى وإن كان بضعف شديد . ما ستكون المساهمة فى الصحبة إذن . أنت ممدد على ظهرك فى الظلام وسيأتى يوم وتتكلم من جديد . يوم أخير . أخيراً ستتكلم من جديد . نعم إننى أتذكر . إنه أنا إذن . كنت أنا إذن .

أنت فى الحديقة وحدك . والدتك فى المطبخ تُعد شرائح الخبز بالزبدة لتتناولها مع السيدة كوت بعد الظهر . إنها تضع طبقة خفيفة من الزبد فوق شرائح الخبز . أما أنت فتراقب السيدة كوت من خلف سور الشجيرات وهى تقترب . إنها سيدة نحيفة وجافة وقصيرة القامة . تجيبها والدتك بأنك تلعب فى الحديقة . أنت تتسلق شجرة عالية وتصل إلى قمتها وتمكث هناك تنصت إلى كل الأصوات ، ثم تقفز إلى أسفل . فروع الشجرة الكبيرة تحد من وقع سقطتك ، تظل لحظة ووجهك نحو الأرض ثم تتسلق الشجرة من جديد . والدتك تجيب السيدة كوت وتقول لها إنك فظيع فى شقاوتك .

بماذا يشعر الآن بما تبقى له من شعور بالنسبة لما كان من قبل ؟ بما تبقى له من المقدرة على الحكم أعتقد أن حالته بلا عودة . فمن الأحرى أن يتساءل عما يشعر به الآن بالنسبة لما كان من قبل وبما كان يشعر به من قبل بالنسبة لما هو الآن ، وبما أنه لم يكن هناك من قبل ، ومن ثم فإنه لا يوجد الآن .

فى نفس الظلام أو فى ظلام آخر إنسان آخر يتخيل كل ذلك لينعم بالصُحبة . كلام يبدو واضحاً من الوهلة الأولى ، ولكن عند إمعان النظر فيه يبدو ذلك غير واضح إلى أن تغمض العين وتستطيع الرأس أن تفكر

بعد أن ترتاح فتبحث فى الأمر ما معنى ذلك ؟ ماذا يعنى ذلك الذى كان واضحاً منذ أول وهلة إلى أن تُغلق العين مثلما تغلق نافذة فى غرفة مظلمة وفارغة .

النافذة الوحيدة المطلة على الخارج المظلم . ثم بعد ذلك لاشىء . لا . للأسف لا . ومضات الذى يصارع الموت وتشنجات تقلبات فكرية لا يمكن وصفها ولا تهدئتها .

ليس هناك وجهة معينة أو اتجاه محدد على الطريق من بدايته إلى نهايته . أو ربما لمزيد من الدقة طريق "باليوجان" هذا الطريق الريفى القديم الغالى . فى موقع ما من طريق "باليوجان" بدلاً " من أى طريق آخر على وجه الخصوص . فى موقع ما من طريق "باليوجان" فيما بين بدايته ونهايته . أنت تسير ورأسك منحنية إلي أسفل تكمل العد عند حافة البئر . عن يسارك الطرق الأولى وأمامك المراعى ، وعن يمينك ظل والدك فى تراجع بسيط . عدة مرات ، تجاوزت محيط الكرة الأرضية . معطف طويل من أسفل القدم إلى الرأس كان أخضر اللون فى الماضى وأصبح قاتما من القدم والقذارة . وقبعة منثنية كانت صفراء فى الماضى حذاء كبير لا يزال أنيقاً . بدأت الطريق فى الفجر وأقبل عليك الليل الآن . انتهى العد والحساب ، إلى الأمام معا أنتما الاثنان ، تبدآن من الصفر . سيراً إلى الأمام فى اتجاه "ستيباسيد" . ولكن فجأة تقطعان الطريق من أمام سور الشجيرات وتختفيان بتباطؤ نحو الشرق من وسط الحقول .

لأن ماذا ؟ لماذا فى ظلام آخر فى نفس الظلام ؟ ومن ذا الذى يسأل ومن الذى يسأل ؟ من يسأل عن ذلك واجب ، من الذى أو من يكون الذى يتخيل كل ذلك . فى نفس الظلام أو فى ظلام آخر . لينعم بالصحبة ، من الذى يسأل فى نهاية الأمر ؟ من يسأل ، وفي نهاية الأمر ، اجب مثلما حدث بأعلاه . وأضاف بعد ذلك بمدة طويلة وبصوت خفيض ، إلا أن يكون هناك شخص آخر مرة أخرى . لن يعُثر عليه فى أى مكان ، لن يُبحث عنه فى أى مكان ، لا يمكن التفكير فيه . لا يمكن أن يُسمى . آخر شخص ممكن أنا .. اكتم السر بسرعة .

النور الموجود حينئذ فوق ظهرك فى الظلام النور الموجود حينئذ . وضوح بلا سحب ولا شمس . تفر من البيت مع مطلع النهار وتتسلق الربوة للوصول إلى مخبأك . عش فى أعلى شجرة ذات زهر أصفر ، هناك شرقاً بعد البحر والجبال العالية . مسافة طولها سبعين ميلاً حسب المعلومات المذكورة فى كتاب الجغرافيا الخاص بك . للمرة الثالثة أو للمرة الرابعة فى حياتك . فى المرة الأولى أخبرتهم بذلك فانبسطت أساريرك . لم تر إلا السحاب . ومنذ ذلك الوقت وأنت تحصده فى قلبك مثل كل شيء . تعود مع هبوط الليل وتذهب إلى فراشك بدون تناول العشاء . أنت ممدد فى الظلام فى هذا النور من جديد ، وأنت فى مخبأك في العش بأعلى الشجرة تحدق بنظراتك فيما وراء البحر إلى أن تجهد عيناك ، تغمض عينيك وتعد حتى مائة ثم تفتحها من جديد وتحدق من جديد . إلى أن تراهن أمامك . أزرق باهت تماما مثل السماء الباهتة . أنت ممدد فى الظلام فى هذا النور من جديد . تنام فى ذلك النور بلا سحاب ولا شمس . ثم حتى بزوغ نور الصباح .

مخترع الصوت والسامع ونفسه ، مخترع نفسه لينعم بالصحبة لنتوقف هنا . إنه يتحدث عن نفسه كما لو كان شخصاً آخر . يقول وهو يتكلم عن نفسه ، أنه يتحدث عن نفسه كما لو كان شخصاً آخر . إنه يتخيل نفسه لينعم بالصحبة . لنتوقف هنا . الإلتباس هو أيضا ينعم بالصحبة . إلى درجة ما . من المستحسن أن يكون هناك أملاً مشعوذاً فذلك أفضل من عدم وجود أمل ، إلي درجة ما إلى أن يبدأ القلب يشعر بالملل ويمل أيضا الصحبة ، إلى درجة ما . من المستحسن أن يكون هناك قلب يشعر بالملل فذلك أفضل من عدم وجود قلب . إلى أن يبدأ القلب فى الهلاك . وهكذا وهو يتكلم عن نفسه ، يخلص فى النهاية إلى القول لنتوقف عند ذلك مؤقتا . مؤقتا .

فى نفس الظلام من خياله أو فى ظلام آخر . لنتخيل ذلك . كذلك الوضع . واقف أو جالس أو ممدد نائم أو فى وضع آخر ، أى وضع فى الظلام . إجابات من بين إجابات أخرى لنتخيلها . من بين أخريات على أسئلة أخرى أيضاً . مع الأخذ فى الاعتبار التمتع بالصحبة . أى الظلامين جدير بأن ينعم بالصحبة ؟ وأى وضع من الأوضاع كلها التى يمكن تخيلها يستطيع أن يمنح شيئا فى مجال الصحبة ؟ كذلك الحال بالنسبة للأسئلة الأخرى التى يمكن تخيلها أيضاً . مثل ذلك السؤال لمعرفة إذا كانت مثل هذه القرارات لا تقبل الطعن فيها . كأن يقرر مثلا بعد تخيل عاقل وناضج لصالح وضع الاستلقاء سواء على الظهر أو على البطن وعلى الأمد البعيد يكون هذا الوضع مخيباً للآمال بالنسبة للصحبة . وهل من الممكن فى هذه الحالة استبدال ذلك الوضع بوضع

آخر . مثل جلوس القرفصاء مثلا والسيقان منثنية فى نصف دائرة مكوّنة بالذراعين والرأس فوق الركبتين . بعض الحركة مثلا . حتى إذا تحرك على أربع . شخص آخر فى نفس الظلام أو فى ظلام آخر يتحرك على أربع ويتخيل كل ذلك لينعم بالصحبة . أو أى أسلوب آخر للحركة إمكانيات التلاقى . فأر ميت أية مساهمة فى الصحبة ستكون تلك ؛ فأر ميت منذ مدة . ألا توجد وسيلة لجعل السامع أكثر طيبة ؟ لجعله حلو المعشر أو على الأقل أكثر إنسانية . من الناحية الذهنية إدخال بعض الحركة والحيوية . جهد ضئيل للتفكير والتأمل على الأقل . مجهود لمحاولة التذكير أو لتحريك العضلات مثلا . بقايا انفعال . بعض علامات القلق والضيق . شعور بالهلاك . دون الخروج من الشخصية . محاولة شاقة جداً . ولكن من الناحية الجسدية هل يجب عليه أن يظل ممدداً بلا حراك حتى النهاية ؟ الجفون فقط هى التى تهتز من وقت لآخر لأن ذلك ضروريا من الناحية الفنية . حتى يمكن قبول الظلام أو إقصائه . ألا يستطيع أن يضع ساقاً فوق ساق ؟ من بعيد لبعيد . يضع الساق اليسرى فوق اليمنى حينا وحينا آخر وفى الوقت المناسب العكس . لا . لا يتناسب بالضرورة . كيف يمكن أن يكون هو ممدداً وساقيه ملتويتين ؟ مرفوضة للوهلة الأولى، حركة ما باليد؟ تقلص . فك التقلص . صعب الدفاع عن ذلك .

أو حركة نهوض لطرد ذبابة . ولكن لايوجد ذباب .، بالرغم من وجود الذباب . لما لا ؟ الإغراء شديد . أن توجد ذبابة ، ذبابة حية تحسبه ميتاً بالخطأ . تفهم الذبابة خطأها ثم تعيد الكرة على الفور . أية مساهمة

فى الصحبة ستكون تلك . ذبابة حية تحسبه ميتاً بالخطأ . ولكن لا . إنه لا يمكن أن يطرد ذبابة .

مشفق أنت على قنفذ واقف فى البرد بالخارج فتأخذه وتضعه فى صندوق قبعات قديم من الكرتون وتضع معه مخزون من الديدان . ثم تضع الصندوق وبداخله الحيوان آكل الديدان فى قفص الأرانب الفارغ القديم وتترك الباب مفتوحا بعد أن تثبته حتى يستطيع الحيوان أن يتحرك ذهابا وإيابا بحرية . وبعد أن يذهب القنفذ سعياً وراء الأكل وبعد أن يأخذ كفايته يعود إلى الحرارة والأمان داخل الكرتون فى القفص . ها هو ذا القنفذ داخل الكرتون ومعه كثير من الديدان بما يكفيه ويجعله ينظر بعيداً . تنظر أنت نظرة أخيرة لتتأكد أن كل شىء على ما يرام قبل أن تغادر المكان وتذهب تبحث عن شىء آخر لقتل الوقت البطئ بطئاً قاتلاً حتى وأنت فى هذه السن الصغيرة .

هذه الشعلة التى ارتفعت إلى السماء بعد هذه الحسنة كانت أطول من المعتاد ولم تتضاءل أو تنطفأ إلا ببطء شديد . لقد كنت تنفعل بشدة تلقائياً فى ذلك العهد ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلا . فما أن تشتعل الشعلة من جراء حسنة تقوم بها أو من انتصار تحققه ضد أعدائك أو بعد كلمة ثناء من والديك أو من مدرسيك ، سرعان ما كانت الشعلة تخبو وتتضاءل وتتركك بعد وقت قصير جدا لتعود كما كنت ضعيفاً مرتعشا ومظلماً كما كنت من قبل . حتى فى ذلك العهد . ولكن ليس فى ذلك اليوم . وحتى نقول الخلاصة عن ذلك الماضى فقد حدث ذلك عصر أحد أيام الخريف عندما التقيت بالقنفذ وأشفقت عليه هكذا وشعرت بقيمة

الحسنة التى قمت بها عندما أويت إلى فراشك لتنام فى تلك الليلة . فركعت على ركبتيك عند حافة الفراش وأنت تصلى وأضفت اسم القنفذ إلى قائمة المخلوقات الحبيبة إليك والتى تذكرها كل ليلة فى صلاتك قبل النوم وتوصى الله بها . ثم وأنت تتقلب فى فراشك تحت دفء الملاءات والأغطية منتظراً ، يغلبك النعاس . كنت تشعر بحرارة فى قلبك وأنت تفكر فى هذا القنفذ المحظوظ الذى أعترض طريقك مثلما فعل من حسن حظه. هذا ماحدث بالضبط فى هذه الحالة حيث أنت وقفا عند تقاطع طريق تغطى جانبيه شجيرات صغيرة ذابلة وكنت تتساءل عن أفضل طريقة لقتل الوقت حتى غروب الشمس . وفجأة مرق هو من بين إحدى الشجيرات واخترق الطريق رأساً إلى الجانب الآخر وفى تلك اللحظة دخلت أنت حياته . ولكن فى صباح اليوم التالى كانت الشعلة قدانطفأت وحل محلها فى قلبك شعور بالانقباض والضيق الشديد . داهمك شعور غامض بأن ماحدث لم يكن يجب أن يحدث . وأنه بدلاً مما فعلته بالأمس كان يجب أن تترك الطبيعة على فطرتها وأن تترك القنفذ يسلك طريقه على حريته . وانقضت أيام طويلة كاملة ثم أسابيع قبل أن تواتيك الشجاعة وتعود إلى القفص ، لم تنس أبدا ما رأيته حينئذ . أنت ممدد فى الظلام على ظهرك ولم تنس أبدا ما رأيته حينئذ . تلك العصيدة المهروسة . تلك النتانة وذلك التلوث .

منذ بضعة لحظات بدأ التهديد الآتى . تضاءلت الحاجة إلى الصحبة لحظات شعر فيها بالارتياح من صحبة نفسه فيها بلا اختلاط . الصوت فيها إذن دخيلاً . وكذلك صورة السامع وحتى صورته ، شعر بالندم ،

لأنه أوجدهما بطريقة مزدوجة ، والمشكلة الآن فى كيفية التخلص منهما . وأخيراً ما معنى صحبة نفسه بلا اختلاط ؟ وأى ارتياح ممكن ؟ لنتوقف هنا مؤقتاً .

فليكن اسم السامع "هاش" مع الضغط على حرف الهاء "هاش" أنت يا هاش ممدد على ظهرك فى الظلام . وليعرف اسمه . لم يعد الأمر يتعلق باكتشاف أشياء فجأة . لا ليس بالنسبة له لا يمكن أن يكون هو غير مقصود أو مستهدف . بالرغم من أنه منطقياً لا يوجد أى سؤال . همس فى جوف الأذن يتساءل إن كان الكلام موجهاً له هكذا هو . فقدان عدم التأكد إذن ، ذلك الغموض هذا الأمل الضعيف بالنسبة له هو الذى يُحرم كثيراً من المناسبات التى يمكنه فيها أن يشعر بشىء . هو الذى ليس بإمكانه أن يعرف معنى الشعور . إنه لا يأمل أكثر من أن يتمكن من ألا يشعر بشىء فهل هذا مستحب ؟ كلا . وهل سينعم بالصحبة من وراء ذلك ؟ كلا . إذن فلا داعى لأن يكون اسمه هاش . فليكن من جديد كما كان دائما ، بلا اسم أنت .

لنتخيل عن قرب المكان الممدد فيه . بدون مبالغة ، هناك إشارة تنبع من الصوت البعيد وتدل على الشكل وعلى الاتساع . إن الصوت يأتى من بعيد ويصل إليه بعد رجع بطئ . وأحيانا يسمع الصوت فجأة بطريقة مباغته وأحيانا يعود الصوت بعد انقطاع طويل . ويأتى ذلك من أعلى أو من كل جانب وعلى جميع المستويات وبنفس درجات الضعف القصوى الناتجة عن الابتعاد الأقصى . ولا يأتى الصوت أبداً من أسفل. حتى الآن ومن ثم فإن المنطق يحتم أن يكون الفاعل على ظهره

فى جناح دائرى مقبب ذى قطر عريض بحيث تكون رأسه فى وسط الدائرة . كم يبلغ طول العرض ؟ ونظرا لأن الصوت ضعيف فى درجته القصوى من الضعف فإن مسافة عشرين متراً يمكن أن تكون كافية أى عشرة أمتار منذ وإلى أية نقطة من المساحة المحيطة به . هذا فيما يتعلق بالشكل والاتساع . وماذا عن الخامة ؟ أية إشارة أو دليل إنها تواجدت ومن أين ؟ لا يجب اتخاذ أى قرار الآن ، على الأقل حتى الآن . وهكذا بعد أن تضايق من الصوت ومن السامع فيما عدا نفسه ، بدأ يتخيل . ولكن بقليل من الخيال أكثر من ذى قبل ، رأى أنه قد تخيل خطأ . فبأى حق يؤكد أن الصوت ضعيف حتى وإن كان الصوت الضعيف أصبح أكثر ضعفاً بسبب البعاد ، ليس لأنه أكثر ضعفاً منذ أن صدر أساساً بكل بساطة ؟ أو ربما يكون صوتاً ضعيفًا ويصبح ضعفاً بالابتعاد وليس لأنه يضعف فى مكانه . ليس له أى حق فى تأكيد ذلك . لا يمكن إذن أن يلقى الصوت ضوءاً على طبيعة المكان الممدد فيه السامع العزيز . فى الظلام الذى لا قياس له ، ولا حدود ، لنتوقف هنا مؤقتاً . ولكن نضيف فقط ما نوع هذا الخيال الملوث بالتعقل ؟ إنه نوع نادر .

شخص آخر يتخيل كل ذلك لينعم بالصُحبة فى نفس الظلام من خياله أو فى ظلام آخر . لنتخيل بسرعة فى نفس الظلام .

ألا توجد طريقة لجعل الصوت أكثر طيبة ؟ لجعله حسن المعشر . افترض أن الصوت قد طرأ عليه تعديل منذ لحظات . بالرغم من أنه ليس هناك زمن للفعل فى هذا الشعور المبهم . كل شىء فى كل لحظة منتهى ومستمر بلا نهاية . ولكن افترض أنه بالنسبة للآخر منذ لحظات طرأ

تعديل على الصوت ، تعديل إلى الأفضل . نفس النبرة الرتيبة دائما مثلما تخيلنا في البداية ونفس التكرار لا يوجد شيء نعيد قوله ، ولكن الحركة أقل . والتنويع في الضعف أقل أيضاً . وكأن هناك بحثاً عن موقع أنسب . ومن ثم التحرر من الالتزام بأقصى ما يمكن من تأثير . أقصى مدى للاستماع الأمثل . مع الأخذ في الاعتبار عدم إزعاج الأذن بارتفاع درجة الصوت ولا على العكس إجبارها على الإنصات ومحاولة الاقتراب لسماع أفضل ، مثل هذا العضو سيكون أكثر استعداداً للصُحبة من ذلك الذي تخيلناه بسرعة في البداية . إنه أفضل بكثير خاصة عند الاقتراب من الهدف . هدف منح السامع ماضياً وجعله يوافق على ذلك الماضي . لقد ولدتَ يوم الجمعة المقدسة بعد مخاض صعب طويل . نعم ، إنني أتذكر . بعد أن غربت الشمس وراء الأشجار والجبال . نعم ، أنني أتذكر ، تماماً مثل قطرة الماء عليها أن تسقط رأساً على الصخر دون أن تنحرف حتى تنخر جدار الصخر .

حينما خرجت من البيت آخر مرة كانت الأرض مغطاة بالجليد . أنت الآن على ظهرك في الظلام بينما كنت ذلك الصباح واقفا عند عتبة الباب الخارجية بعد أن أغلقت الباب بهدوء خلفك أسندت ظهرك على الباب ورأسك منثنية إلى الأمام وأنت تستعد للسير . حين فتحت عينيك من جديد لم تر قدميك فقد انسدل ذيل معطفك ولامس الجليد . يبدو المشهد الحزين وكأنه مضيئ من أسفل . أنت ترى نفسك في تلك اللحظة يوم خروجك الأخير وأنت مسند ظهرك على الباب الخارجي في انتظار أن تنطلق في السير . بعيداً عن هنا . ثم المشهد تحت ضوء الجليد .

أنت ممدد فى الظلام مغمض العينين وتشاهد نفسك وأنت فى ذلك الحين مستعداً للإنطلاق في السير فوق حقل النور . وتسمع من جديد صرير الباب الخارجى وهو ينغلق خلفك بهدوء ، ثم الصمت قبل أن تخطو الخطوة الأولى . وأخيراً ها أنت تنطلق فى السير فوق الروابى البيضاء الفرحة بإنطلاق الحملان فوقها فى الربيع وبازدهار الزهور البرية المتناثرة وكأنها مشيمة الجنين .

تنطلق فى خط مستقيم مثلما تفعل دائما من الفتحة الصغيرة فى سور الشجيرات الشوكية التي تحدد المكان غرباً . انطلاقاً من هذه النقطة عند الروابى البيضاء يلزمك عادة ألف وثمانمائة إلى ألفين خطوة طبقاً لحالة مزاجك ولحالة الأرض تحت قدميك . ولكن فى ذلك الصباح كان يلزمك أكثر من ذلك بكثير . أكثر بكثير جداً . إن ذلك الخط المستقيم شيء معتاد جدا تحت قدميك ، حتى أن قدميك بإمكانها السير إذا دعت الحاجة لذلك وأنت مغمض العينين دون أى خطأ حتى نقطة النهاية مع بعض الخطوات الزائدة ناحية الشمال أو الجنوب . إن ذلك ليس ضرورياً بالمرة إلا فى داخلك، وهذا ما تفعله قدماك وليس هنا فقط. ثم إنك تسير دائماً وكأنك مغمض العينين طالما أنك تركز عينيك على قدميك وعلى الطريق أمامك . وهذا كل ما تراه من الطبيعة حولك ، وذلك منذ اليوم الذى حنيت فيه رأسك نهائياً .

الأرض تهرب منك تحت قدميك ، وأنت لا تعد خطواتك أو تحسبها لسبب بسيط جداً هو أنك تصل يومياً إلى نفس العدد ، ومتوسط الرقم لا يتغير من يوم لآخر طالما أن الطريق هو نفسه لا يتغير . ولكنك تأخذ

عدد الأيام فى الاعتبار وكل عشرة أيام تقوم بعملية ضرب ثم تجمع الأعداد . لم يعد ظل أبيك يتبعك لقد تخلى عنك منذ أمد بعيد . أنت لم تعد تسمع خطواتك دون أن تسمع أو ترى تستمر فى السير . يوماً بعد يوم . نفس الطريق . وكأنما ليس هناك طريق غيره . بالنسبة لك ليس هناك طريق آخر .

فيما مضى لم تكن تتوقف إلا لتختم العد والحساب حتى تستطيع أن تنطلق من الصفر من جديد . ولكن تلك الحاجة قد ألغيت وكذلك الحاجة إلى التوقف ألغيت هى أيضاً نظرياً ، إلا فقط فى نهاية الممر حين تستعد للعودة . وبالرغم من ذلك فإنك تتوقف . على عكس ما كنت تفعل فيما مضى . ليس بسبب الإرهاق ، إنك لست مرهقاً الآن أكثر من أى وقت . وليس أيضاً بسبب الشيخوخة . إنك لست شيخاً الآن أكثر من أى وقت مضى ، ومع ذلك فإنك تتوقف على عكس ما كنت تفعل فيما مضى . لدرجة أن نفس مسافة مائة متر التى كنت تقطعها فيما مضى فى ثلاث أو أربع دقائق تقطعها الآن فى خمسة عشر أو عشرين دقيقة . إن قدمك تسقط تلقائيا فى نصف الخطوة أو حينما يجب عليها أن تنطلق تتوقف القدم وكأنها ملتصقة بالأرض وكل الجسد واقف . ضيق لا يمكن التعبير عنه أو وصفه ، ولكن الأهم من ذلك هل تستطيع قدماك أن تتقدمان أكثر من ذلك ؟ أو بالأحرى ، هل ستذهبان أبعد من ذلك ؟ أقل ما يجب أنت ممدد فى الظلام مغمض العينين وترى المشهد . بينما لم يكن باستطاعتك ذلك فى حينه . قبة السماء المظلمة ، والأرض الناصعة البياض وأنت واقف بلا حراك فى الوسط ، والشجيرات الصغيرة ترزخ

تحت الجليد . وذيل المعطف ينسدل فوق الجليد ، وتحت القبعة القديمة الرأس المملوءة بالهموم تنحنى فى صمت . فى وسط الروابى البيضاء وفى نصف الطريق من فتحة السور . ذلك الخط المستقيم . إنك تنظر وراءك ولكنك لم تكن تستطيع أن تفعل ذلك فى حينه فترى موقع اقدامك وآثارها دائرة كبيرة فى عكس اتجاه عقارب الساعة مثلما فى جهنم . وكأنما أصبح القلب فجأة ثقيلاً جداً . فى النهاية ، ثقيل جداً .

فى عز الشباب . لنتخيل نموذجًا من فوحًان رائحة كريهة وأنت ممدد على ظهرك فى الظلام . تتذكر ، يومًا من أيام شهر أبريل بلا سحب . هى تلحق بك فى الكشك الصغير . الكشك الصغير مسدس السطوح ومصنوع من أغصان شجر الأرزية وشجر الصنوبر . محيط الكشك متران والطول ثلاثة والمساحة الأرضية ثلاثة متر مربع ، للكشك نافذتان متقابلتان متعددة الألوان ذات زجاج مربع ولكل نافذة إطار . والدك كان يحب الاختلاء بنفسه يوم الأحد فى الصيف بعد الغداء ومعه زجاجة خمر ووسادة . كان يجلس على إطار إحدى النافذتين بعد أن يفتح حزام سرواله ويقلب فى صفحات كتاب ، بينما تجلس أنت قبالته على إطار النافذة الأخرى وساقاك فى الهواء . وكلما سعل أوهمهم تحاول أنت أيضاً أن تسعل أو تهمهم وعندما يموت سعاله يموت سعالك أنت أيضاً . كان ذلك يسره ، ويسعده جداً أنك تحاول تقليده وتقليد سعاله وكان أحيانا يصطنع السعال ليسمعك وأنت تحاول السعال مثله . ومن حين لآخر كنت تستدير وتنظر من خلال مربع زجاجى وردى ، تلصق أنفك الصغير فوق الزجاج الوردى وترى الخارج وردى . هربت السنوات

وها أنت ذا فى نفس المكان مثلما فى ذلك الحين ، والأضواء التى تشبه ألوان قوس قزح تغرق المكان وعيناك مركّزة على الفراغ . وهى تتأخر ، تغمض عينيك وتبدأ فى حساب حجم المكان . أنت تلجأ دائماً فى الأوقات العصيبة إلى العمليات الحسابية البسيطة وكأنها مرفأ . تتوصل إلى رقم سبعة متر مكعب تقريباً . وإلى الآن وأنت فى الظلام خارج إطار الزمن تجد العزاء فى الأرقام . تفترض أن هناك إيقاع لضربات القلب وتحسب عدد دقات القلب فى اليوم الواحد ، فى الأسبوع ، فى الشهر . فى السنة . ومع الافتراض أن لكل حياة عمر محدد ولكن حتى الآن ليس لديك فى ماضيك سوى عشرة بلايين أمريكية ، فها أنت من جديد جالساً فى الكشك الصغير تحسب حجمه بالأمتار المكعبة . سبعة متر مكعب تقريباً . ولأسباب غامضة يبدو لك هذا الرقم غير معقول فتعيد الحساب من الصفر مرة أخرى . وما أن تبدأ فى إعادة الحساب حتى تسمع وقع أقدامها الرقيقة . رقيقة بالنسبة لامرأة فى حجمها . تفتح عينيك وأنت تسمع دقات قلبك وبعد لحظة بدت لا منتهية، ظهر وجهها فى النافذة . بدأ شحوب وجهها أزرق تماماً من المكان الذى أنت فيه وأنت معجب جدا بهذه الزرقة الطبيعية وكذلك هى ترى شحوب وجهك من المكان الذى هى فيه أزرق أيضاً . إن هذا الشحوب الطبيعى صفة مشتركة بينكما . الشفاه القرمزية لا تعكس ابتسامتك ، وبما أن تلك النافذة توجد فى نفس مستوى عينيك وأنت تنظر إليها من مكانك هذا ومن ناحية أخرى فإن أرضية الكشك فى نفس مستوى سطح الأرض الخارجى فإنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من التساؤل إذا لم

تكن هى قد ركعت فوق ركبتها . أنت تعرف مسبقاً وعن تجربة أن طول قامتكما الواحدة تقريباً ما هى إلا حصيلة أجزاء متساوية ، لأنكما عندما تكونان متواجهين سواء فى وضع الوقوف أو فى وضع النوم فإنكما تكونان مقابلين وجها لوجه ، فتتلامس ركبتكما وكذلك العانة وحتى شعر الرأس تتشابك خصلاته . فهل يمكن أن نتوصل إلى خلاصة أن فقدان القامة بالنسبة للجسد الجالس يكون بنفس النسبة للراكع على ركبتيه ؟ هنا تغمض عينيك حتى تستطيع أن تراجع الحساب شفهياً وتقارن الأجزاء الأولى والثانية أى المسافة من بطن القدم إلى مفصل الركبة ومن الركبة حتى حزام الحوض . كم كنت مولعاً بالحساب ، يقظاً وأنت مغمض العينين ليلاً أو نهاراً . فى ذلك الظلام التام ، ذلك الضوء بلا ظلال . لتبتعد فقط . أو ربما لشأن مثل ذلك الشأن حينئذ . أمامك الساق بأكملها . تفرِّق أجزاءها وتضعها جنبا إلى جنب . وكأن لديك بعض الشك . الجزء الأعلى أطول وبالتالى فإن الجالس يخسر فى طول القامة عندما يكون المقعد فى مستوى الركبة . هنا تترك الأجزاء وتفتح عينيك فتجدها جالسة أمامك . صمت . الشفاه القرمزية لا تعكس ابتسامتك . نظراتك تسقط فوق صدرها . أنت لا تذكر أنك رأيت صدرها أبداً بهذا الامتلاء . ثم تسقط نحو بطنها ولديك نفس الإحساس. إن بطنها ممتلىء مثل بطن أبيك المنبعج من فتحة الحزام المفكوك . هل هى حامل حتى قبل أن تطلب يدها ؟ تنغلق أنت على نفسك . وهى أيضاً رغما عنك أغمضت عينيها . ها أنتما جالسان فى الكشك الصغير فى هذا الضوء الذى يشبه ألوان قوس قزح فى هذا الصمت .

أفرغه فقدان الخيال فأوقف كل شيء وكل شيء توقف . حتى انتابته من جديد الرغبة فى الصحبة ، حينئذ عاد لينادى على السامع بحرف "م"الميم على الأقل . وذلك لتسهيل التعارف . أو حتى ينادى عليه بحرف آخر حرف "و" لنتخيل كل ذلك وحتى هو نفسه كان داخل الإطار لينعم بالصحبة . فى نفس الظلام حيث يوجد "م" حسب أحدث المعلومات، لم نتخيل بعد الوضع الذى سيكون عليه وهل سيكون ثابتاً أم متحركاً . وعندما يتحدث عن نفسه، يقول أيضاً فى المرة الأخيرة التى تحدث فيها عن نفسه كانت عندما قال لنفسه فى نفس الظلام من خياله ، وليس فى ظلام آخر كما كان مقترحاً من قبل . فى نفس الظلام ، ولكن كان على استعداد أكثر لينعم بالصحبة . ولم يبق سوى أن نتخيل الوضع الذى سيكون عليه ، وهل سيكون ثابتاً أم متحركاً . أى وضع من جميع الأوضاع التى يمكن أن نتخيلها ، لن يكون حملاً على المدى الطويل ؟ أى وضع سواء الثابت أو المتحرك سيكون الأكثر ترفيهاً على المدى الطويل؟ وفى نفس الوقت على وتيرة واحدة . الوقت مبكر لمعرفة ذلك ، ولماذا لا نقول منذ الآن ما سنقوله ونعيده بعد ذلك. إن ذلك غير ممكن . وماذا بعد ؟ هل يمكننا الآن إذا ارتأى هو ، أن ذلك أنسب له أن ننسحب من الظلام الذى استحسنه هو حسب أحدث المعلومات المتوفرة والذهاب إلى ظلام آخر مختلف تماماً عن خياله ؟ إذا قرر هو الآن أن يمدد محتضراً حتى وإن عاد وندم على ذلك فيما بعد ، فهل يستطيع مثلاً أن ينهض واقفاً أو أن يستند على جدار أو أن يخطو ذهابا وإيابا ؟ هل سيتخيل "م" نفسه من جديد فى أغنية لتنويم الأطفال ؟ هل نستطيع أن نذهب لنجدته بلا قيد ؟ هنا فى نفس الظلام من خياله ، يغادره بلا استئذان متخبطا فى حيرته ، وهل يتساءل فى أعماقه – كما هى عادته دائما – عما إذا كانت هموم الدنيا لا تزال كما كانت على أيامه .

حتى الآن "م" على تلك الحال . هو ممدد فى مكان مظلم . لم نتخيل بعد شكل أو مقاييس المكان . هو يسمع بوتيرة متقطعة صوتاً ويتساءل أحيانا إذا كان هذا الصوت يخاطبه هو أم شخص آخر متواجد في نفس المكان . طالما أن لا شيء يؤكد عندما يصف الصوت بكل مصداقية الوضع الذى هو عليه ، إن ذلك الوصف ليس لصالح شخص آخر متواجد فى نفس الوضع ، ولكن هذه الشكوك تتلاشى رويداً رويداً عندما ينغلق الصوت عليه بدلاً من أن يتناثر فى جميع أنحاء الغرفة . وعندما يصمت الصوت لا يُسمع إلا تنفسه هو وعندما يطول صمت الصوت يولد الأمل بأنه سيصمت إلى الأبد . ولكن هذا النشاط الفكرى عادى جداً ، وسرعان ما ينطفيء الشعاع النادر للتعقل . الأمل واليأس مفهومان مترادفان نكتفى بذكرهما هنا الواحد تلو الآخر ، أما عن مراجع وأصول وضعه الراهن فليس هناك أى توضيح . لا يوجد ما يجعلنا نقترب من ذلك الحين أو من الآن . فقط الجفون تتحرك ، عندما تمل العين الظلام فى الخارج وفى الداخل فإن الجفون تنغلق ثم تنفتح بعد ذلك . لم يخمد الأمل فى وجود حركات صغيرة أخرى ، ولكن لا توجد أية حركة يمكن ملاحظتها حتى الآن ، أو على مستوى أكثر أهمية لصالح الصحبة لا توجد حركة حزن مستمر مثلا أو شهوة ما أن ندم أو فضول أو غضب أو أى شيء من هذا القبيل أو أية حركة فكرية أو ذهنية موفق إلى حد ما حتى يستطيع أن يذكره وهو يتحدث عن نفسه ، طالما أنه لا يستطيع أن ينكر أنه يتراجع . ماذا يبقى لإضافته لهذا الرسم التخطيطى ؟ إنه متعذر تسميته . حتى "م" يجب أن يسقط أما "و" فإنه يستعيد خياله مثلما تخيله حتى الآن "و" ولكن هو نفسه خيال سراب .

إذن شخص آخر مرة أخرى . لاشيء منه . سراب . يتخيل سراباً ليجد من عدمه . لنتحرك بسرعة . لحظة لهفة فيما عدا هو . بسرعة ، لنتحرك بسرعة ، بسرعة . لنتخيل متخيل يتخيل كل ذلك لينعم بالصُحبة . فى نفس الظلام السرابى مثل سراباته الأخرى ولكن فى أى وضع . وهل فى نفس وضع السامع نعم أم لا وهو فى وضعه لم يستقر بعد على وضع نهائى . ألا يكفى أن يكون هناك واحد فقط بلا حراك ؟ ما جدوى أن يكون هناك اثنان بلا حراك ؟ إذن فليتحرك بإعتدال على أربع . زحف معتدلاً . صدره بعيداً عن الأرض وعينه فى وضع المراقبة فى اتجاه السير إن لم يكن ذلك خيرا من لاشيء فلنلغى كل شيء إن أمكن وفى الفراغ نجد حركة أخرى أو لا حركة بالمرة . لم يبق إذن إلا أن نتخيل الوضع الأكثر ملائمة . ولكن فى الوقت الحاضر ليكتفى بالزحف . يزحف ويسقط . يزحف من جديد ثم يسقط من جديد . فى نفس الظلام السرابى مثل سراباته الأخرى .

بعد أن تاه . لمدة طويلة وكأنه ضائع استرجع الصوت مكانه وضعفه النهائى . ولكن أين مكانه ؟ لنتخيل ولكن بحذر .

فوق الوجه المقلوب عموديا فى اتجاه مؤخرة الرأس والجمجمة ، وعلى ضوء النور المنبعث منه إن كان هناك فم فإنه لن يراه . مهما أدار عينيه فى يأس . ما مدى الارتفاع عن الأرض ؟ طول ذراع . قوة ؟ ضعف . تماماً مثل أم تنحنى من الخلف فوق المهد لتفسح المكان للأب ليرى وهو بدوره يهمس للمولود بنبرة متبادلة باهتة لا أثر للحب .

أنت ممدد على ظهرك تحت جذع شجرة حور فى ظلها المرتعش . وهى نائمة بزاوية قائمة ومتكئة هى على كوعيها . وعيونك مغمضة بعد أن غاصت فى عيونها . وفى الظلام تغوص عيناك فى عينيها مرة أخرى ، وتشعر بخصلات شعرها الطويل الأسود تتحرك فوق وجهك مع النسمات التى لا تتحرك ، وتحت الغطاء من الشعر الطويل تختفى وجوهكما . وهى تهمس ، استمع إلى الأوراق . وانتما تسمعان أصوات الأوراق والعين فى العين . تحت الظلال المرتعشة .

يزحف إذن ثم يسقط . يزحف من جديد ويسقط أيضاً من جديد . وإذا كان ذلك لا يضيف شيئاً بتاتاً فى نهاية الأمر فليسقط إذن لآخر مرة . أو أنه لم ينتحب أبداً على ركبتيه ، لنتخيل كيف يمكن أن يستفيد الصوت بأى طريقة من هذا الزحف ليعتدل من الخلف إلى الأمام ،

أول كل شىء ما هى وحدة القياس فى الزحف ؟ إنها توازى خطوة المتنزه على قدميه . إنه ينتصب على أربع ويستعد للتقدم . يداه وركبتاه ترتكزان فوق زوايا مستطيل طوله قدمان وعرضه حسب الطلب . وأخيراً تتحرك الركبة اليمنى وتتقدم . لنقل تتقدم لمسافة ست بوصات وتقلل المسافة بينها وبين اليد اليمنى بقيمة الربع . وهذه الأخيرة بدورها تتقدم بنفس المسافة فى الوقت المناسب . وهكذا يتحول المستطيل إلى مُعَيَّن .

ولكن لن يستمر ذلك إلا الوقت الضرورى اللازم للركبة ولليد اليسرى لتقوما بنفس الشىء ، ثم يعود المستطيل من جديد . وهكذا دواليك إلى أن يسقط . هذا ما يسمى بالهملجة عند الزواحف والدواب إذ ترفع معا

القائمتين اللتين من جهة واحدة . وهذا الوضع فى السير هو أقل الأوضاع انتشاراً عندها . إذن هو الوضع المسلى أكثر .

وهو مستمر فى الزحف يستمر فى الحساب الشفهى . يعد حبة حبة فى رأسه . واحد ، اثنان، ثلاثة ، أربعة ، واحد . ركبة . يد . ركبة . يد . اثنان . قدم . إلى أن يسقط بعد خمسة . ثم بعد ذلك يعود من جديد إلى نقطة الصفر . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، واحد . ركبة . يد . ركبة ، يد ، اثنان ، ستة . ويستمر هكذا . فى خط مستقيم بقدر المستطاع . وبما أنه لم يعترضه عوائق فإنه يعود أدراجه . ويصل إلى الصفر من جديد . يأخذ اتجاها آخر مختلفاً . يستمر بلا توقف ويبذل أقصى ما فى طاقاته . وهنا أيضاً ينتهى به الأمر إلى تغيير الاتجاه دون أن يصل إلى نهاية المطاف يعود من جديد إلى الصفر . وهو يعرف تماما إلى أى مدى يمكن للظلام أن يضله فى عكس اتجاه عقارب الساعة بسبب القلب – تماما – مثلما يحدث فى جهنم . أو على العكس تحويل القطع الإهليجى الشكل إلى زاوية مستقيمة الضلعين . مهما كان الأمر فإنه قوى البنية ويستمر فى الزحف بلا معالم على الطريق حتى الآن . ركبة ، يد . ركبة يد . فى الظلام بلا معالم .

هل من المعقول أن نتخيل السامع فى حالة من الخمول الذهنى الكامل ؟ فيما عدا فى تلك اللحظات التى يسمع فيها أى فى الأوقات التى يصبح خلالها مسموعاً . فماذا بوسعه أن يسمع فيما عداالصوت وتنفسه هو ؟ آه ، هناك أيضاً الزحف . فهل يسمع الزحف والسقوط ؟

وما هى المساهمة فى الصحبة إذا كان بوسعه أن يسمع الزحف ؟ السقوط ، العودة إلى السير على أربع ، العودة إلى الزحف . وهو يتساءل ، يا إلهى ماذا يمكن أن تكون هذه الأصوات ؟ وماذا تعنى ؟ لنترك ذلك إلى فيما بعد أكثر فراغا . وفيما عدا الصوت ماذا يمكن أن ينشط ذهنه ؟ الرؤية ؟ كيف لا يمكن التأكيد على أنه لا يوجد شىء يمكن أن يراه ؟ فات الأوان الآن وطالما أنه يلاحظ تغييراً فى الظلام عندما يغمض عينيه أو يفتحها . وطالما إنه يلمح مبدئياً النور البسيط الذى ينشره الصوت مثلما تخيلناه تخيلناه بسرعة ، نور بسيط جداً طالما أن الصوت مجرد همهمة فلنتفق على ذلك . هكذا نرى أن العيون كانت منذ بداية الربع الأول من الكلمة . مع الافتراض أن العيون كانت مفتوحة فى ذلك الوقت ، إلى درجة أن ذلك النور البسيط جداً الكائن أخيراً لم يكن ولم يلمح إلا خلال نصف غمضة عين ، وماذا عن حاسة الذوق ؟ حاسة الذوق فى فمه ؟ انتهت منذ زمن بعيد .

دفع الأرض لهيكله العظمى ؟ من أعلى الرأس إلى أخمص القدم . من عظمة كعب القدم إلى عظمة وسط الجمجمة . ألا يمكن أن تنتابه رغبة فى التحرك فتكسر خموله ؟ تجعله يقع على بطنة ؟ أو على جنبه ؟ رغبة فى التغيير ، ليس إلا . ليُمح إذن هذا القدر القليل جداً من الحاجة . وفى نفس الوقت يُمنح السعادة حين يعلم إذن ذلك العهد الذى كان بوسعه أن يتلوى فيه بكل حرية قد انقضى . وماذا عن حاسة الشم ؟ رائحته هو ؟ انتهت منذ زمن بعيد . لم يعد يشم روائح أخرى حتى وإن

وُجدت مثلاً رائحة فأر ميت منذ مدة طويلة ، كما حدث فى وقت ما أو جيفه أخرى من هذا النوع ، يمكن أن نتخيلها فيما بعد .

إلا إذا استطاع الزاحف أن يشم . آه ، الزاحف المتخيل . هل من المعقول أن نتخيل أن الزاحف وهو يزحف يمكن أن يشم ؟ أن يشم بقوة أكثر من خياله . وأن يجعل أيضاً هذا الذهن الخامل يندهش ، هذا الذهن المغلق دون الدهشة أن يندهش من هذه الرائحة الأجنبية الغريبة . لمن أو من أين يا إلهى هذه الروائح الكريهة ؟ إنه سيكسب رفيقاً إذا كان بوسع خياله أن يشم إذا كان بوسعه فقط أن يشم خياله ربما يحتاج لحاسة سادسة .

إحساس غريب غامض بأن كارثة على وشك الوقوع ؟ نعم أم لا ؟ لا . مجرد تفكير عاقل ؟ دون التجربة .

الله محبة . نعم أم لا ؟ لا .

الخيال الزاحف فى نفس الظلام هل بوسعه أن يتخيل مثل خياله وهو يزحف ؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال من بين أسئلة أخرى وهو ممدد فيما بين زحفة وأخرى . وإذا كانت الإجابة الواضحة قد خطرت على باله ورسخت فى ذهنه إلا أن الإجابة الأكثر صلاحية لم تكن بذلك الوضوح واستدعى الأمر أن يقوم بعدة زحفات وعدة ركعات قبل أن يتوصل إلي تخيل يصلح لهذا الأمر ، وأن يضيف عدة تنهدات على نفس الوتيرة بأنه لا يوجد هناك إجابة مقدسة . ومهما حدث فإن الإجابة التى اختارها فى النهاية كانت إجابة نافية . لا لم يكن ذلك بوسعه ، إنه لأمر فى غاية

الجدية أن يزحف فى الظلام بالطريقة التى تخيلناها وهى طريقة تستأثر بالإنسان فلا يستطيع أن يقوم بأى نشاط آخر حتى مجرد تشيئه أى شيء من العدم . فقد كان لزاما عليه أن يسير بهذه الطريقة الخاصة جداً والتى تخيلناها بسرعة شديدة ليس هذا فقط بل أن يسير فى خط مستقيم بقدر الإمكان أيضاً ، وبالإضافة إلى ذلك كان عليه أن يستمر فى الحساب والعد وهو سائر وكلما أضاف نصف قدم إلى نصف قدم حفظ فى ذاكرته الإجمالى المتغير دوما للإعداد المختزنة السابقة . وفى نهاية الأمر كان لزاما عليه أيضاً أن يجعل عينيه وأذنيه على أهبة الإستعداد لتلقى أية إشارة تساعد على تحديد المكان الذى وضعه فيه خياله بسرعة كبيرة . كل ذلك وهو يعانى من خيال مصاب بنوع من التعقل كما يجب عدم إغفال طبيعة تخيلاته التى يمكن الرجوع فيها ، كل ذلك جعله يجيب بالنفى بأنه لا يستطيع ذلك . إنه لايستطيع منطقيا أن يتخيل وهو يزحف فى نفس الظلام الذى تخيله خياله .

إضراب فى الليل ، الضوء يموت ، إنعدام الضوء وماله أن يموت بعد لا . لايمكن أن يموت طالما أنه ليس هناك ضوء . كان الضوء يحتضر حتى الفجر دون أن يموت .

أنت واقف وظهرك للبحر . ولا صوت هناك إلا صوتها . يخفت أكثر فأكثر كلما ابتعدت بهدوء . ثم يعود بهدوء مع عودتها بهدوء . وأنت تستند على عصا طويلة . ويداك ترتكزان على مقبض العصا ورأسك ترتكز على يديك وعيناك لو فتحتهما لرأتا فى أول الأمر بعيداً عن ضوء

آخر شعاع للشمس ذيل معطفك الطويل وكعب حذائك منغرساً فى الرمال . ثم فقط ظل عصاك قبل أن يختفى ، وذلك قبل أن يختفى من فوق الرمال ، قبل أن يختفى عن ناظريك ليلة بلا قمر وبلا نجوم إذا فتحت عينيك فإن الظلام سينقشع .

ازحف ثم اسقط . تمدد وتنهد وأنت مغمض العينين فى الظلام . واعد الكرة . الإحباط الجسدى بعد أن زحفت بلا نتيجة . وربما تتساءل ، فى نهاية الأمر ما جدوى الزحف ؟ لماذا لا أكتفى بالتمدد فى الظلام وأنا مغمض العينين وأهجر كل شىء . وانتهى مع كل شىء ، انتهى من الزحف الساخر ومن السراب الفانى . ولكن عندما يفقد الشجاعة هكذا لا يستمر طويلاً على تلك الحال . فسرعان ما يمتلأ قلبه المنهار بالرغبة فى التمتع بالصحبة وأن يهرب من صحبة نفسه ، حاجته إلى سماع ذلك الصوت من جديد . حتى وإن يكن لمجرد أن يقول من جديد ، أنت ممدد على ظهرك فى الظلام . أو حتى وأن رأت عيناك النور لأول مرة فى مساء ذلك اليوم الذى صرخ فيه المسيح فى الساعة التاسعة تحت السماء المظلمة قبل أن يموت . الحاجة للإنصات أكثر لرؤية ذلك النور المشع وأنت مغمض العينين . أو مع إضافة قليل من الضعف البشرى لتطوير السامع - تماما - مثل الشعور بالأكلان مثلاً فى منطقة من اليد لا يمكن حكها أو ربما يمكن حكها ولكن اليد تكون جامدة بلا حراك . أكلان لا يمكن حكه . أية مساهمة فى الصحبة تلك ؟ أو فى نهاية الأمر السؤال الذى يطرح نفسه لمعرفة ما يسمع بالضبط وهو يتحدث عن

نفسه مع الإشارة الغامضة بأنه ممدد . وهى بكلمات أخرى ومن بين جميع طرق وأساليب التمدد تعتبر أفضل طريقة تنال الإعجاب والاستحسان على المدى البعيد ؟ وإذا كان قد زحف بالطريقة التى تم تحديدها ثم سقط فإنه من البديهى سقط ووجهه إلى أسفل فى اتجاه الأرض مع الأخذ فى الاعتبار مدى التعب والزهق وهو الشعور الذى انتابه فى تلك اللحظة فإنه يكون من الصعب أن يحدث غير ذلك . ولكن بعد أن انبطح هكذا فلا شىء يمنع سقوطه على أحد جنبيه أو على ظهره الوحيد ثم يستمر ممدداً إذا كان وضع من تلك الأوضاع الثلاثة أكثر تسلية من غيره من بين الأوضاع الثلاثة ، يجب إقصاء الوضع على الظهر بالرغم من أنه وضع مغر ، لأن ذلك الوضع هو الذى اختاره السامع من قبل . أما بالنسبة للوضعين الآخرين على الجنب الأيسر أو الأيمن فإقصائهما ملزم من النظرة الأولى . لا يتبقى إذن إلا وضع الإنبطاح . ولكن كيف ؟ ينبطح كيف ؟ كيف يصنع ساقيه ؟ وساعديه ؟ ورأسه ؟ وهو منبطح فى الظلام ويناضل كى يرى كيف يمكنه أن يختار أفضل وضع للإنبطاح . كيف ينعم بالصحبة أفضل وهو منبطح .

يلزم الأمر تحديد صور السامع من بين جميع الأوضاع على الظهر ما هو أنسب وضع لا يؤدى إلى الملل على المدى الطويل ؟

مغمض العينين ومنبطح فى الظلام انتهى به الأمر إلى فتح عينيه ببطئ ليرى ما حوله . ولكن وقبل كل شىء هل هو عار أم مغطى ؟ ولا حتى غطاء بسيط مثل المنشفة . عارياً . منظر هذا اللحم الأبيض فى

لون العظم فى النور المنبعث من الصوت ، تلك هى الصحبة . رأسه مستندة على العظم القزالى لمؤخرة الرأس . الساقان ملتصقتان فى وضع مستقيم ، القدمان منفرجتان على شكل زاوية قائمة ، اليدان وحولهما الأغلال غير المرئية مضموتين فوق العانة . هناك تفاصيل أخرى حسب الطوارئ . لنتركه هكذا فى الوقت الراهن .

بالرغم من كل الهموم البشرية التي طرحتك أرضا إلا أنك ترفع رأسك مستنداً على كفيك وتفتح عينيك ، وبدون أن تتحرك من مكانك تبعث الضوء فوق رأسك . تفتح عيناك على الساعة فى مستوى نظرك . ولكن بدلاً من أن تقرأ الوقت وتعرف كم كانت الساعة فى جوف تلك الليلة فإن عينيك تتعلقان بحركة دوران عقرب الثوانى وظله الذى يسبقه أحيانا ، وأحيانا أخرى يتقدمه وبعد عدة ساعات يبدو لك هكذا ، يختفى ظل عقرب الثوانى تحت العقرب عند الوصول إلى ٦٠ ثانية و٣٠ ثانية ومن ٦٠ إلى ٣٠ يتقدم الظل العقرب بمسافة تتزايد من صفر إلى ٦٠ وتصل إلى ذروتها عند ١٥ ومن هنا تبدأ تنقص حتى تصل إلى الصفر ومنه إلى ٣٠ ومن ٣٠ إلى ٦٠ يتبع الظل عقرب الثوانى بمسافة تتزايد من صفر إلى ٣٠ وتصل إلى ذروتها عند ٤٥ . ومن هنا يبدأ التناقص حتى تصل إلى الصفر ومنه إلى ٦٠ . أما الآن فإنك تغير اتجاه الضوء فوق الساعة فيتحرك الضوء وتتحرك الساعة سواء من جانب أو من جانب آخر فيختفى بذلك الظل تحت العقرب عند نقطتين مثلاً عند ٥٠ وعند ٢٠ . وربما عند أية نقطتين أخريين طبقاً لزاوية الانحراف ، ومهما كانت

الزاوية وأخذ فى الاعتبار الفرق بين النقاط الأولى والنقاط الثانية عند اختفاء الظل فإنه الفرق دائماً ٣٠ ثانية . إن الظل ينبعث من تحت عقرب الثوانى عند أية نقطة خلال دورانه سواء كان يتبع العقرب أو يسبقه لمسافة ٣٠ ثانية ، ثم يختفى الظل من جديد لمدة من الثوانى أقل من أن تحسب قبل أن ينبثق من جديد ليتبع العقرب أو يسبقه . وهكذا دواليك دون هدنة ، ومن الواضح أن ذلك هو الشيء الثابت الوحيد ، لأن حتى المسافة بين عقرب الثوانى وظله تتغير هى أيضاً طبقاً لزاوية الانحراف . ولكن مهما كانت زاوية الإنحراف فإن المسافة تتزايد وتتناقض بلا تغيير من الصفر إلى ذروتها بعد ١٥ ثانية ثم ١٥ ثانية من جديد وحتى الصفر على التوالى . وهكذا دواليك بدون هدنة . وهذا شيء ثابت آخر أيضاً كان بوسعك أن تراقب بطريقة أفضل وتمعن في مراقبة عقرب الثوانى وظله فى دورتهما الموازية لا هدنة حول إطار الساعة والتى ينتج عنها متغيرات وثوابت ، كى تقوم بتعديل وتصحيح بعض الأخطاء المحتمل حدوثها فى المعلومات المتوفرة لديك حتى الآن ولكن لم يعد بوسعك أن تحتمل أكثر من ذلك فتترك رأسك تسقط فى وضعها السابق وتعود عيناك المغمضتان إلى الهموم البشرية . ويبزغ الفجر عليك وأنت دائماً فى ذلك الوضع نور الشمس ، يدخل من النافذة ومن ناحية البحر فيضفى عليك نوراً وسرعان ما يمتد ظلك وظل المصباح المضئ دائماً فوق رأسك وظل بعض الأشياء الأخرى أيضاً على أرضية المكان .

ما تلك التخيلات الضوئية فى الظلام ! من الذى يتعجب هكذا ؟ من

الذى يسأل عمن يتعجب . ما تلك التخيلات الضوئية فى الظلام بدون ظل للضوء ولا للظل . هناك شخص آخر من جديد ؟ لنتخيل كل ذلك لننعم بالصحبة . أية مساهمة فى الصحبة تلك ؟ شخص آخر مرة أخرى ، لنتخيل ذلك لنغم بالصحبة . لنتحرك بسرعة . بسرعة .

وحتى نصل إلي حل وبأى ثمن وبأية طريقة كانت ، فإنك عندما كنت لا تستطيع الخروج كنت تجلس القرفصاء فى الظلام . لقد سرت منذ بدأت تخطو خطواتك الأولى مسافة ثلاثين ألف قدم أى تقريباً ثلاث مرات الدورة . ولم تنجح أبداً فى أن تتخطى شعاعاً واحد من بؤرة النار ! بؤرتك فى النار ، هكذا كان يقف عازف القيثارة العجوز فى انتظار التكفير عن الذنوب والذى نجح فى أن ينتزع من دانتى أول ربع ابتسامة ، ربما فى ركن ما منعزل من الجنة . فى جميع الأحوال لمن الوداع فى هذا المكان . المكان بلا نافذة . عندما تفتح عينيك يخف الظلام وينقشع . أنت الآن ممدد على ظهرك فى الظلام وكنت فيما مضى تجلس القرفصاء . لقد أعلمك جسدك أنه لم يعد بوسعه أن يخرج ، لم يعد بوسعه أن يسير ويخترق الطرق الصغيرة الملتوية وسط الروابى فى الريف والمراعى الشاسعة المتلئة أحيانا بقطعان من الأغنام فتجعلها مبتهجة وأحيانا أخرى تكون فارغة وموحشة .

لسنوات طوال صاحبك ظل والدك وبقى بجوارك مرتديا البدلة الرسمية القديمة لموظفى هيئة السكك الحديدية ثم بعد ذلك ظلت لسنوات طوال وحيداً . وكنت تضيف إلى مجموع خطواتك السابقة خطوة خطوة

ما تقوم به من خطوات فيتزايد المجموع وكنت تتوقف من حين لآخر ورأسك منحنية لتحديد الإجمالى النهائي ، ثم تعاود السير بدءا من الصفر من جديد وأنت جالس القرفصاء هكذا تتخيل أنك لم تعد وحدك بالرغم إنك تعرف جيداً أنه لم يحدث أى شيء يجعل ذلك ممكناً . وتستمر المبادرة وهى محاطة بعدم معقوليتها . وأنت لا تهمس لنفسك كلمة كلمة ، وأعرف أن مصيرى الفشل فى كل ما أفعله حاليا ومع ذلك فأنا مصر على الاستمرار . لا . لأن ضمير المتكلم سواء المفرد أو بالأحرى وربما من الأجدر أن ضمير المتكلم الجمع من الصيغ التى لا تدخل أبداً فى أسلوب تعبيرك . ولكنك تراقب نفسك فى صمت مثلما تراقب شخصاً لا تعرفه ، مصاب بمرض ما ، لنقل مصاب بمرض "هود جكين" أو ربما أفضل مصاب بمرض "بارسيفال بوت" ، والذى ضبط وهو متلبسا بالصلاة . من حين لآخر تتمدد فى رشاقة غير متوقعة ومن ثم فإن الأجزاء المختلفة تتحرك . اليدان تنفكان عن الركبتين ، والرأس ترتفع ، والسيقان تفك ثنيتها ، ويرجع الجذع للوراء وجميعها مع أجزاء أخرى أيضاً بدون عدد تستمر فى تحركها بالتعاقب حتى تصل إلى أقصى مدى . ثم تثبت بلا حراك فى نفس الوقت معاً . والآن وأنت على ظهرك تستعيد حكايتك من حيث توقفت عندما بدأت حركة التمديد . واستمرت حتى وصلت إلي العملية المضادة ثم توقفت من جديد . وهكذا وأنت على ظهرك فى الظلام أحيانا فى وضع القرفصاء وأحيانا وأنت ممدد تتألم بلا جدوى . ويتم الانتقال فى الوضع الأول إلى الوضع الثانى

بسهولة أكثر مع مرور الوقت وعن طيب خاطر أيضاً والعكس بالعكس . لدرجة أن التمديد الذى كان فيما مضى يأتى بالصدفة أو بالاتفاق أصبح الآن هو الوضع المعتاد أو فى النهاية القاعدة . أنت الآن ممدد على ظهرك فى الظلام ولن تجلس أبداً على مؤخرتك وتضغط ساقيك وتلصقهما ببعضهما بساعديك وتخفض رأسك إلى أقصى ما تستطيع . ولكن وجهك المنكس نهائياً سيتألم بلا جدوى على حكايتك ، وذلك حتى تسمع أخيراً أن الكلمات قد وصلت إلي نهايتها . كل كلمة تفرغ من معناها أكثر وأكثر كلما اقتربت من آخر كلمة ، ثم تفرغ معها الحكاية . حكاية شخص آخر معك فى الظلام . حكايتك أنت وأنت تحكى عن شخص آخر معك فى الظلام . ومن الأفضل فى النهاية وبعد حساب وتفكير ؟ فذلك عمل بلا طائل وأنت كما كنت دائماً وحيداً .

(انتهت)

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك باريندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت . رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا الرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	جين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح التجريبى بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط

(تحت الطبع)

المختار من نقد ت . س . إليوت
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
تاريخ السينما العالمية
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر
أوبرا ماهوجونى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
حروب المياه
الأدب الأندلسى
الأدب المقارن
راية التمرد
السياسة والتسامح
مساءلة العولمة
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى
الفجر الكاذب

الشعر الأمريكى المعاصر
مدخل إلى النص الجامع
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
الشرق يصعد ثانية
الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
ثقافة العولمة
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
حيث تلتقى الأنهار
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
المدارس الجمالية الكبرى
التحليل الموسيقى
الإسكندرية : تاريخ ودليل

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٠٥٦ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 079 - 3)

المشروع القومي للترجمة

يعتبر صمويل بيكيت من أشهر وأكبر أدباء القرن العشرين، وقد حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩، كما أنه من الأدباء القلائل الذين يكتبون بلغتين فى آنٍ واحد؛ فقد كتب معظم مؤلفاته باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

أما كتاباته فهى تندرج تحت ما يطلق عليه أدب اللامعقول، وكذلك الأدب السوريالى والرواية الجديدة؛ حيث يلجأ الكاتب إلى المفارقات؛ ليؤكد على «لامعقولية» المفاهيم التى نعيش بها فى الحياة دون أن نفهم أسبابها أو مبرراتها؛ لأنها أحياناً لا يكون لها أسباب معقولة.

وقد يلجأ الكاتب أيضا إلى أسلوب السرد بتيار الوعى وبضمير المتكلم، ولكنه يوجه الخطاب والحديث إلى القارئ، وأحيانا كثيرة يخرج من إطار السرد ويدخل فى نقاش مع القارئ فى موضوع لا يمتُّ للرواية بصلة.

المجلس الأعلى للثقافة